القسم الثاني - بين القبة وطرابلس، إهدن وزغرتا

p. 35-100

FULL TEXT

العائلة والحارة وزمن المدرسة الأول

1 والدي لم يكن متعلماً. ولد في زغرتا عام ١٩٢٨ بعد عشر سنوات من نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان المولود الأول في عائلة من خمسة صبيان وأربع بنات. والده يوسف كان دهاناً ويبدو أنه لم يفلح في تحسين وضعه المادي لأسباب لم أسعَ يوماً للبحث عنها. جدي أبو ميشال (نسبة لاسم والدي) كان قليل الكلام ويحافظ على تقديم ذاته على أنه وقور وجدي و"ما بيضحك للرغيف السخن". لم أكن أسمع صوته إلا عندما كان يصدر الأوامر لجدتي أو لي، عند زيارته، لتلبية مطالب تخصه بالذات (غالباً ما كان يرسلني إلى "الدكانة" لشراء حاجة ما). في المقابل، أذكر جيداً أن جدتي كانت امرأة حنونة وعطوفة ومنهمكة دوماً بطلبات جدي وبالسعي لإرضاء "خواطره". براعتها في تحضير الطعام الشهيّ، لا سيما الكبة الزغرتاوية بأشكالها المتنوعة، كلما كنا نقوم بزيارتها، لا يرقى إليها الشك. هذا رغم أنها لم تكن لا من زغرتا، ولا حتى من لبنان. كانت ستي مهْجت من مواليد صافيتا، في شمال سوريا. لكنها برعت باكتساب الطريقة الزغرتاوية في تحضير المأكولات، وهذا بشهادة أمي على الرغم من الاختلاف الكبير بين شخصيتهما وما تبع ذلك من تضارب في الآراء.

2 على أية حال، أقول إن والدي لم يكن متعلماً وكان يطلب مني مع بلوغي سن الرابعة عشرة تقريباً، ألّا أذهب إلى "الورشة" (الاسم الذي كان يطلقه على مكان عمله) مردداً: "ما بدي ياك تطْلع دهان، بس روح عالمدرسة وتعلم". علمت لاحقاً سر هذا الطلب واكتشفت أن جدي أجبره على ترك المدرسة باكراً للالتحاق به ومساعدته في "شغل الدهان". فهو الابن البكر في المنزل وكان عليه أن يعاون والده على كسب "لقمة العيش". أنا لم أكن الابن البكر، لكنني كنت أندفع أحياناً لمساعدة والدي في عطلة الصيف بعدما أكملت سنتي الدراسية السابعة. كان ذلك يحدث أحياناً عندما تكون الورشة في إهدن حيث كانت العائلة تقضي عطلة الصيف (وهي بلدة جبلية في شمال لبنان، على ارتفاع ١٤٥٠ متراً عن سطح البحر، يلجأ إليها سكان زغرتا في فصل الصيف). على أية حال، آنذاك كان إحساسي بالمسؤولية والإقرار بأهمية التحصيل العلمي قد برزا لدي فجأة مع بداية دخولي صف "السرتيفيكا"، وأنا المعروف في العائلة بالولد المولع باللعب و"الشقي" والمتأخر سنتين على الأقل في مسار تحصيل العلم قياساً على الأولاد الذين من العمر نفسه. "ما بدي ياك تطلع دهّان بس روح عالمدرسة وتعلم". هذا كان الحد الأقصى لتدخل "أبو بيار" في مسار تحصيلي العلمي. فهو بالكا لإرسالي إلى مدرسة جيدة كمدرسة "الفرير" مثلاً، التي طالما كنت أسمع من في الشمال. وحصل أني اختبرت ذلك جيداً يوم تعرفت على أحد طلابها (م. ي أيام المراهقة قبيل هجرتي إلى أستراليا. أتساءل اليوم وأنا أفكر في تلك المر بلوغي صف "السرتيفيكا" إلى الاهتمام بالدراسة وأن أصمم على إكمال تحص الجامعية؟ أبي يريدني أنا وإخوتي أن نتعلم؛ لكنه لا يملك لا الوقت (فغالبية العيش) ولا العلم ولا المال للتعويض عن ذلك بإرسالي إلى مدرسة "جيدة" أ المنزل، كما جرت العادة عند العائلات الميسورة.

بصراحة لا أتذكر الكثير من الأمور التي مرت عليّ في مرحلة ما قبل صف "ال سلباً أو إيجاباً. ومن الذكريات التي كانت مصدر "اعتزاز وفخر" بالنسبة لصبي عمره بعد، هي عدم التردد في الاشتباك مع أولاد الحارة. ومن المحتمل أنني سمعة "الولد الشجاع" في نظر من كنت ألعب معهم في جوار البيت. كما أذ طلبات العائلة اليومية، كشراء سلعة ما من "دكنجي الحي"، أو شراء الخبز من

بأخذ "صينية الكبة" لشيّها في فرن الحطب الموجود في المقلب الآخر للمكان الذي كنا نسكن فيه. وأعتقد أيضاً أن ما يفسر هذا النشاط في خدمة والديّ هو السعي لكسب رضاهما الذي كنت أفتقده منهما الأمر بأدائي في المدرسة. ففي هذا المجال، كنت في عداد التلامذة الكسالى والذين كان نصيبهم الإقصاء الدائم للجلوس في المقاعد الخلفية في غرفة الصف. بصراحة، لم تترك سنواتي الأولى على مقاعد الدراسة أي شيء في ذاكرتي له علاقة بالدراسة أو المدرسين. ربما سبب ذلك هو طريقتي في التعاطي مع ذلك الجانب "القاسي" من طفولتي حيث لا دور لي ولا مكانة، وكنت مقصياً على الدوام إلى دائرة الطلاب "الفاشلين". بعبارة أخرى، كنت شجاعاً و"قبضاي" في نظر أولاد الحارة، و"خدوماً" في نظر أهلي لا أتردد في تلبية طلباتهم؛ ولكن من جهة أخرى، كانت أمي تردد على مسمعي أن "بول عقلو باللعب" وليس في الدراسة. فكيف حدث إذن أن تحولت بعد وصولي إلى صف السابع ابتدائي، إلى تلميذ "مجتهد" ومصمم منذ تلك اللحظة وصاعداً على الاجتهاد والنجاح في المدرسة؟ بقي هذا السؤال يجول في خاطري بين الحين والآخر لسنوات عديدة. إنه سؤال يصعب الجواب عليه لعدة اعتبارات، منها ما يعود إلى تقادم الزمن ومنها ما لتلك المرحلة من آثار نفسية عليّ بالذات. ولكنني سأتجرأ وأغامر بتقديم بعض التفسير لهذا التحول المفاجئ في مسار تحصيلي العلمي.

4 بدأت حضور صف السرتيفيكا وأهلي مغتاظين جداً لفشل أخي الأكبر مني في الامتحان الرسمي للفوز في هذه الشهادة. بيار "الذكي" والابن البكر يصدم والديه بخبر سقوطه في الامتحانات الرسمية لشهادة "السرتيفيكا"، وهو الذي كان دوماً الولد "الشاطر" (على الأقل بالنسبة لي) والآمال معقودة عليه للمساهمة لاحقاً في انتشال العائلة من بؤسها "المادي" عن طريق النجاح في الدراسة. وكان هذا الاعتقاد بحتمية نجاح الابن البكر شائعاً في أوساط العائلات اللبنانية. وهكذا وللمرة الأولى في حياتي أجد الفرصة أمامي متاحة "لأبرهن" لوالديَّ أنه باستطاعتي أن أكون الابن "الشاطر" البديل عن أخي المتكاسل و"الجهلان"، أخي الذي انسحب من مشروع تحقيق "حلم" العائلة وسلك طريقه الخاص (والصادم لنا بالطبع) في بناء مستقبله. وقد بدأت تلك الفرصة تتجلى تدريجياً مع مرور الزمن. فانتهاز هذه الفرصة بالنسبة لي لم يأت بالطبع نتيجة قرار اتخذته عن كامل وعي وتخطيط. فحقيقة الأمر أن قرارات الفرد في الحياة ليست وليدة حسابات الخسارة والربح كما يفترض منظرو "الفعل العقلاني" وحسب؛ إن اتخاذ القرار هو الحلقة الأخيرة في سلسلة طويلة من الاعتبارات الموضوعية لكن المستنبطة ذاتياً والمتجسدة في ميول الفرد واستعداداته وأفق توقعاته كما أشار عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو. والقرار الفردي في هذا السياق محكوم أيضاً بعلاقات القوى وموازين هذه العلاقات و"استراتيجيات" الفاعلين في وسط "الحقل" الذي يتشكل من هذه العلاقات (في الحالة التي أتكلم عنها المقصود هو "حقل العلاقات العائلية"). والمرجح أن سعيي المستجد واهتمامي في رفع مستوى أدائي في المدرسة قد اتخذته تدريجياً وتراكمياً في وسط احتشاد تفاعل العلاقات داخل العائلة وتنازع الفاعلين (أي الأولاد) لانتزاع المزيد من "اعتراف" أصحاب السلطة العليا (أي الأهل).

ثم هناك بُعدٌ آخر من العلاقات العائلية ذو صلة أيضاً بتبديل موقفي من التحـ
إلى التأثير على المدى الطويل للنزاع المستمر بين أبي وأمي ومحوره "مسؤ
الوالدة، عن الضائقة المالية التي لم تفارقنا لغاية هجرتنا إلى أستراليا وتمكننا
كنت الابن الشاهد على الضائقة المالية التي كانت أمي تواجهها في تلك السـ
بسببها على حياتنا اليومية، كاضطرارنا للاستدانة من "الدكنجي" دون التمكن
متتالية، أو التأخر المستمر في دفع الإيجار لصاحب "الملك"، أبو أنور، الذي كا
الطابق الذي يعلو الطابق الأرضي حيث كنا نسكن نحن. وكانت أم بيار مقتنعة
المسؤول الأول والأخير عن حالتنا هذه. قناعتها تلك كانت مدفوعةً بقيم مردهـ
والعليا من "الطبقة الوسطى" التي كانت تتدفق آنذاك، أي في ستينيات القر
الأعلى والشرقي لمدينة طرابلس. واعتقاد تلك الفئات أن تحقيق النجاح "المـ
بالكامل على إرادة الشخص بعينه. ومن المرجح أن تسرب هذه القيم من الفئـ
مصحوبة بالأسى وخيبة الأمل التي عانت منها لعدم "تجاوب" أبو بيار مع نصا

السنين وغيّر في النتيجة موقفي من التحصيل العلمي وضرورة النجاح في هذا المجال. "النزاع" المكتوم بيني وبين أخي بيار على تحسين المكانة في نظر الوالدين، وتشرّب الاعتقاد بقدرتي على النجاح في المدرسة المشروطة ببساطة بعقد العزم على تحقيق ذلك الأمر، قد ساهما في تقديري بتعديل موقفي من الدراسة وعقد العزيمة في النهاية على الوصول إلى مستوى التخصص الجامعي.

6 أسوق هذا الكلام وأنا على يقين الآن من أن آثار النشأة والموقع الطبقي الذي أتحدر منه، إضافة إلى المسار المهني الذي سلكته بعد انتقالي إلى أستراليا، قد ترك بصماته على تكويني الأكاديمي الراهن.

سنوات الدراسة في لبنان

7 قبل هجرتنا العائلية إلى أستراليا، تلقيت تعليمي في ثلاث مدارس، واحدة رسمية واثنتان خاصتان. وكان اختيار تلك المدارس في مراحل مختلفة وصولاً إلى صف الثالث تكميلي محكوماً دون أدنى شك بالوضع المادي للعائلة. قضيت السنة الأولى في مدرسة "اللونه"، وهي مدرسة خاصة تتألف من عدة غرف لتعليم الصفوف الابتدائية وتقع في الطابق الأرضي لمبنى تملكه عائلة أبو غابي. هذه العائلة التي نزحت، كما العديد من العائلات في العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي، من الريف الماروني شرقي مدينة طرابلس وسكنت في القبة سعياً وراء ما تقدمه المدينة من فرص عمل ومداخيل أفضل. أما خبر ملكية العائلة للمبنى الذي تقع فيه المدرسة، فقد تناهى إلى مسمعي بعد عدة سنوات من دخولي إلى تلك المدرسة وبعد أن أصبحت رفيقاً لابن أبو غابي، جوزيف. وعلمت أيضاً بعد هجرتنا وهجرة عائلة أبو غابي لاحقاً إلى أستراليا، أن الأخير كان عضواً في الحزب الشيوعي اللبناني، وهو ما اكشفته صدفة عندما التقينا في إحدى المناسبات التي كان فرع الحزب الشيوعي ينظمها في مدينة سيدني دعماً للحزب في لبنان خلال الحرب الأهلية التي اندلعت في نيسان عام ١٩٧٥.

8 على أية حال، كان المبنى مؤلف من طابقين ومبني على قطعة أرض واسعة لدرجة أنها كانت تستخدم كملعب مصوّن للتلامذة الذين لم يتجاوز عددهم المئة، على ما أذكر. مبنى قديم ومتواضع جداً، استأجرته وردة، المديرة، للاستثمار في مدرسة ابتدائية "خاصة" ولكن لذوي الدخل المتدني في الحي الخلفي للطريق الرئيسية التي تربط طرابلس بمنطقة زغرتا وصولاً إلى بشري-الأرز. بعد بضع سنوات، وكنت قد غادرت إلى مدرسة أفضل بقليل تدعى مدرسة الآباء البندكتيين Pères Bénédictins، علمت أن مدرسة "اللونة" أغلقت أبوابها بسبب الخلافات المادية بين أعضاء إدارتها وما رافق ذلك من إشاعات شخصية طالت المديرة وردة.

9 المهم في الأمر هو ما بقي في ذاكرتي عن تلك المرحلة المبكرة من حياتي المدرسية. إنه الولع باللعب واللهو لا أكثر ولا أقل، مع غياب كامل، وربما تغييب لا شعوري، لكل ما له علاقة بالدرس
أذكر بوضوح مذهل المكانة المركزية لقطعة من الإسمنت كانت تقع على ال
كان هذا "المجسم" مربع الشكل بارتفاع متر أو أكثر بقليل، مع تحويل لجانب
في تلك المرحلة، تمحورت حوله معظم أوقات اللعب التي قضيتها مع الأولاد
العليا له وعندما ينخفض الحماس على التنافس، كنا نستخدم الجهة المنحدرة
"للتزحلق" عليها مراراً وتكراراً بطريقة لا تعرف الملل. وبعد فترة وجيزة، قررنا أ
كحاجز للقفز فوقه من جانب إلى آخر. وكنا نتقصد افتعال الأعذار للأهل لتمض
مع بعضنا و"مع" هذا "المجسم" لأوقات مديدة ولأيام عديدة. هذا ما زلت أذ
حياتي المدرسية ولا شيء آخر.

وربما ما من أمرٍ آنذاك كانت له الأهمية نفسها التي تستحقها تلك الأوقات بال
الآن، أن اللعب مع الأولاد و"مع" كتلة الإسمنت كانت الضرورة التي تحكمت ب
الذين لا نملك شيئاً سوى أجسادنا وتلك الكتلة الصماء.

11 بعد فترة من الزمن عرفت من الوالدة أنني مكثت في مدرسة "اللونه" سنة واحدة. انتقلت بعدها إلى مدرسة الآباء البيض. بالطبع لم أغادر اللعب في ملعب المدرسة الأولى بالطريقة الفجائية نفسها، إذ استمريت بالعودة إليه وإلى كتلة الإسمنت لفترة طويلة لم أعد أذكر مداها الزمني بالضبط.

12 في مدرسة الآباء البيض كانت التجربة أغنى وأطول زمناً، رغم انقطاعي عنها لسنة واحدة قضيتها في مدرسة رسمية في زغرتا تعرف باسم مدرسة "الجوخدار" نسبة إلى اسم عائلة المدير الذي كان يتولى إدارتها. خلال تلك السنة، علمت من الأحاديث التي كانت تجري في المنزل أن الأهل لم يستطيعوا توفير القسط المطلوب من إدارة المدرسة الخاصة. بعدها عدت إلى "مدرستي" بمسعى من الوالدة التي طلبت من المدير، الأب جوزيف، المزيد من تخفيض القسط لقناعتها أنها أقرب إلى المنزل وأفضل مستوى من المدرسة الرسمية. ومن الواضح أن الأب المدير تجاوب مع طلب الوالدة، كما جرت العادة لدى الآباء البيض في التعاطي مع العائلات ذات الدخل المتدني.

13 يستوقفني من تلك المرحلة أمران: الأول معايشتي لأسلوبين تعليميين؛ أسلوب تلقيني فائدته الوحيدة تمرين الذاكرة على الحفظ وامتلاك القدرة على استعادة المعلومات "ببغائياً"، وهي فائدة عابرة في الأساس. ورغم الحفظ لم أكن لأفهم، ثم لا يبقى في ذاكرتي إلا القليل النادر. وأعتقد أن هذه كانت حال معظم الطلاب. والأسلوب الآخر، وكان عدد قليل جداً من الأساتذة يتبعونه بصورة متقطعة، يعتمد على شرح المادة بصورة تحليلية، الأمر الذي يتطلب التحضير المسبق من الأستاذ. الأسلوب الأول كان طاغياً لعدة أسباب، منها تخرج الآباء الذين كانوا يشاركون في التعليم من مدارس فرنسية تقليدية تعتمد على تصور أن التلميذ هو في الأساس متلقٍ و"رأسه" مجرد صندوق لتخزين المعلومات التي تقدم له في الصف. أما المعلمون والمعلمات من خارج السلك الكهنوتي، فكانوا طلاباً متخرجين من الصفوف الثانوية ولم يكملوا الدراسة الجامعية، أو خريجين جامعيين ولكن دون أن يدرسوا علم التربية، كما هي الحال في المدارس ذات المستوى الأفضل والأغلى تكلفة في لبنان خلال عقد الستينيات من القرن المنصرم.

14 أستاذ اللغة الفرنسية، طوني، على سبيل المثال، كان من الصنف الأول من الأساتذة. والأرجح أنه أكمل تعليمه الثانوي وتوقف عن الدراسة بعد ذلك. و"لزيادة الطين بلّة"، كان عازف ساكسيفون وغالباً ما يأتي متأخراً إلى الصف بعد أن يمضي ليلته يعزف في الملاهي دون أن يبذل أي جهد لتحضير مادته. وكان المخرج الأسهل والدائم له في تلك الحالة، هو دعوتنا للتمرين على الإملاء. فكان يملي علينا نصاً يختاره عشوائياً ونحن نكتب حتى نهاية الحصة دون أي شرح أو تحليل. وهكذا تمضي الساعة دون أي استفادة تذكر. عامان قضيناهما مع أستاذ لم يفلح سوى بجعلنا على علاقة أكثر ارتباكاً مع اللغة الفرنسية. أساتذة كثيرون كانوا يشاركون في هذا الأسلوب، ومنهم أستاذ الرياضيات.

في المقابل، وعلى نقيض هذا الأسلوب التلقيني في التعليم، جاءنا في الصف
البريفيه)، الأستاذ فهد مسؤولاً عن تعليم مادة اللغة العربية، أدب وشعر ونحو
بهذه المادة لدرجة جعلتني أتجرأ على كتابة الشعر ونصوص إنشائية استحوذ
إثر ذلك، تطورت بيني وبينه صداقة شخصية تجددت عند عودتي إلى لبنان،
كانت ميزة أستاذ مادة اللغة العربية أنه يشرح بوضوح وبتسلسل منطقي جد
يريد منا تعلمها. كذلك كان أستاذ مادة الفيزياء والكيمياء، ما جعلني أبرع في
الامتحانات الرسمية لنيل الشهادة التكميلية قبيل هجرتي إلى أستراليا.

إضافة لهذا، أثبتت دراسات عديدة في علم اجتماع التربية تأثير "ثقافة" الوالد
ووضعهم المادي على الأداء المدرسي للأولاد. ووفق هذه الدراسات أن الوسط
المدرسة يجعله يمتلك العديد من "الكفاءات" الثقافية، كالتكلم بلغة أجنبية وا
والأسلوب المنطقي في التعاطي مع الأمور (أذكر أن والدي كان غالباً ما يعل

أي تعليل)، كما ويختزن العديد من المفردات بسبب التفاعل اليومي مع والديه. هذه "الكفاءات" تجعله يمتلك ميزة التفاعل السهل والإيجابي مع مناهج التعليم ولغة التدريس المتعلقة بها قياساً على الأولاد الذين يتحدرون من خلفية محرومة ثقافياً واقتصادياً. ومع مرور الزمن تتسع هذه الفروقات في غالب الأحيان.

17 والدتي لم تكن متعلمة كالعديد من أبناء جيلها (ولدت عام ١٩٢٨)، لكنها كانت تحسن القليل من القراءة والكتابة. والأهم بالنسبة إلى نشأتي، كان اهتمام والدتي البارز في دفع أبنائها على طريق التحصيل العلمي إيماناً منها بأهمية التعليم في عملية تغيير الوضع الاجتماعي. كان الموقع الطبقي لوالدتي مصدر رفض واعتراض للحالة التي تعيشها. اعتراضها هذا لم يكن مسؤولاً فقط عن حث الوالد على تحقيق إنجازات أكبر في المهنة التي كان يزاولها (بقي الوالد عاجزاً عن تحقيق رغبتها، لا بل تراجع على سلم الترقي الاجتماعي بتحوله في أستراليا إلى عامل مأجور في مصنع) بل كان يدفعها أيضاً إلى طرح الأسئلة "الكبرى" عن الإنسان وشروط تحقيق السعادة أو استحالتها، وعن الهدف من الحياة في الأساس وصولاً إلى حد التشكيك في فكرة الخالق. بإيجاز، كانت والدتي تعترض على موقعها "الطبقي"، تارة عن طريق السعي للالتحاق بفئة الميسورين، وتارة بالتشكيك في مشروعية الأوضاع القائمة والانغماس في نقدها "للحياة" الممزوج بالسخرية والمرارة. تعاطفي مع والدتي خلال نشأتي لأسباب ذكرتها سابقاً، جعلني أيضاً أكتسب تدريجياً هذه النزعة في شخصيتها نحو التحليل والتساؤل، والتي تحولت مع الزمن إلى ملكة في قدراتي الإدراكية. عدم الاكتفاء بالصفة التقريرية للكلام (والمعرفة لاحقاً) وميولي الذاتية للتحليل والسعي لفهم "منطق الأمور" غير المنظور جعلني "أنجذب" إلى الأساتذة الذين يعتمدون أسلوب الشرح والتعليل، وربما دفعني لاحقاً في الجامعة لدراسة الفلسفة والتخصص في علم الاجتماع.

18 لا شك أن الآثار العديدة التي ترتّبت عن وضع العائلة المادي والثقافي ونشأتي في وسط علاقات اجتماعية متضاربة (خليط من قيم الاستسلام والتحدي والنقد والتساؤل)، وارتياد مدارس من النوع الذي وصفته سابقاً، قد طبعت مسيرتي ومن ضمنها مساري التعليمي وبعض المهارات التي امتلكتها مع استكمال دراستي في أستراليا وحصولي لاحقاً على شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا. من تلك الآثار ما شكل حافزاً للعمل الدؤوب على مواجهة المصاعب وتجاوزها، ومنها ما بقي متحكماً في ميولي ورغباتي اللاواعية.

مراهقة وحب وتقاليد

19 في ستينيات القرن الماضي في مرحلة مراهقتي، لم تكن العلاقات الحميمية، ومنها القضايا الجنسية، موضوعاً تربوياً لا في المدارس الرسمية ولا المدارس الخاصة. وفي إطار العائلة، يعتبر الأهل أن الكلام والتوعية في هذه المواضيع من المحرمات. وحتى في العلاقات بين الأقارب، كانت القيم السائدة
والتفاعل بين أفراد العائلة الواحدة حول الموضوع، أكانت نواتية أم ممتدة. و
على الأوساط الشعبية "المستورة" التي كنا ننتمي إليها.

أما الدروس الدينية، فلم تكن أفضل حالاً. كان المطلوب هو التنكر لشعورك ا
عنه لمرحلة الدخول في مؤسسة الزواج. صحيح أننا كنا نسمع بالزواج ونشاهد
معنى أن يكون المرء متزوجاً ولم يكن يخطر بالبال فعل الزواج على الإطلاق.
الآخرين من جيلي، حالة الشعور بالانجذاب العاطفي والجنسي تجاه "الصبايا"
مرحلة المراهقة بالالتفات العابر لما كان يظهر من "جسد" المرأة حسب اللباس
الزمن. ولم تكن الالتفاتة آنذاك تؤسس لحصر الاهتمام بفتاة أو امرأة بعينها.
نظري على ما كنت أعتبره "سيكسي" بلغة هذا العصر. بعد تلك المرحلة، دخل
بفتاة محددة كنت قد فزت في اختيارها لي "حبيباً". كانت الفتاة في السنة الأ
التكميلية. وأذكر تماماً كيف دام "تعلقي" بها لسنة تقريباً. وقامت علاقتنا عل
الطرفين: نظرات وابتسامات، وأحياناً إطلاق بعض التعابير بالوجه أو الحركة با
أو الانزعاج. وغلب على تلك "الفتاة" الظهور بمظهر عدم الرضى لأسباب كنت

تلك العلاقة. وهكذا بدأ "الانجذاب" إلى "حبيبتي" الأولى بالاضمحلال تدريجياً، ربما لأنني لم أكن أتقن قواعد "اللعبة" التي كانت تدعوني للمشاركة فيها. على أية حال، ومع انسحابي من تلك "العلاقة"، وجدت نفسي أدخل مجدداً في لعبة أخرى كانت متاحة آنذاك بين المراهقين والمراهقات. لعبة شاركت فيها مع فتاتين على التوالي. الأولى كانت تسكن في طابق علوي في بناية تقع على الطريق بين المنزل والمدرسة، والأخرى كانت تسكن في الطابق الأول لمبنى يقع قبالة المنزل الأرضي الذي كنا نسكنه على طريق الأرز في محلة "القبة". علاقة "حب" من بعيد كانت ذروتها إرسال ابتسامة مصحوبة "بالغنج والدلع" اللطيفين بين الحين والآخر. وتمضي الأيام ونتمكن، أنا ومن كنت "مغرماً" بها في الحالتين، من ترتيب الظروف لنكون "لوحدنا". فى التجربة الأولى، التقيت مع "حبيبتي" عدة مرات خلال الموسم الدراسي، في الفسحة التي يوفرها الدرج المؤدي إلى سطح البناية التي كانت تقصدها أحياناً لزيارة صديقتها. وكانت المرة الأولى التى "أغمر" فيها فتاة كعاشق وصاحب مشاعر انجذاب تجاه المرأة. وبالرغم من تبادل القُبَل، إلا أن كلانا لم يتجرأ على تقبيل فم الطرف الآخر. والتجربة "الغرامية" الأخرى، كان مسرحها سفح جبل "سيدة الحصن" في إهدن، حيث كانت العائلة تمضي عطلة الصيف. كانت تلك المرة الأولى التي نتبادل فيها القبل ونطبعها على فم الآخر، بينما كنا محاطين بالضباب الذي يلف جبل السيدة في أواخر الصيف. من بعدها، لم تسمح الظروف بتكرار تلك التجربة التي خطفتني إلى عالم آخر خارج المكان والزمان اللذين أعرفهما. أقر بهذا الشعور، رغم أن ذلك اللقاء تم بين مراهقين يسعيان بفشل، على ما أعتقد الآن، لتقليد تبادل القبل التي شاهداها في أفلام هوليوود.

21 حب عذري يتجلى بأحداث كتلك التي ذكرتها في مجتمع تقليدي ومحافظ يدفعني، كما أمثالي، إلى الخروج عن المألوف. لكنه خروج يبقى مقيداً بالبنية العميقة لما هو مألوف وسائد، والتي تقوم على عدم الاعتراف بمرحلة المراهقة ومتطلباتها "الحميمية". صحيح أن مجتمعنا في ستينيات القرن الماضي كان قد دخل في طور يعترف فيه بمرحلة الطفولة والمراهقة قبل الولوج إلى سن الرشد، إلا أنه لم يقر بحاجات ومتطلبات تلك المرحلة بصورة تجعل من المراهقين بخاصة منعتقين من قيود التقاليد البطريركية (من جهة الشابات والشباب) التي تكبل عقولهم وإرادتهم ورغباتهم.

زمن النشأة في القبة، طرابلس

22 النشأة في عائلة مارونية في محلة القبة في العقد السادس من القرن الماضي، لها نكهة خاصة. كان والدي كتائبياً متحمساً لدرجة أنه كان يعلّق صورة متوسطة الحجم لمؤسس ورئيس الحزب، الشيخ بيار الجميل، في وسط الصالون، قبالة الشباك المطل على الطريق العام. هذا الأمر لم توافق عليه الوالدة، لأنه يفصح عن هوية الوالد السياسية للقاصي والداني، ويشكل استفزازاً، بحسب رأيها، للمارة "المسلمين". في ذلك الوقت، كان الطرابلسيون بغالبيتهم من المؤيدين لجمال عبد الناصر. وكان "بيار الجميل" من توجهات وشعارات سياسية عربياً ولبنانياً. ولم يكتفِ الوالد بصورة "الشيخ الأب سمعان الدويهي، نائب قضاء زغرتا وزعيم آل الدويهي المعروف بولائه الثاني الأبرز للسياسة الناصرية.

للإنصاف، أن الوالد لم يسعَ ولا للحظة إلى نقل هذا الولاء المزدوج إلى أولاد آراءه السياسية إلا عندما كان "يتشاجر" مع جارنا أنطون، "اللاجئ الفلسطيني أسمعه في نشأتي الأولى). كانت المشاجرة تدور حول "تحرير فلسطين" وض أنطون ناصري الهوى يراهن على الزعيم العربي جمال عبد الناصر لتحرير "فل "الغرب" وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية. كانت هذه المشاجرة، وغير دون أن يدعونا الوالد للإصغاء إليها أو المشاركة فيها. إلا أن هذا الجو قد ترك لاحقاً إلى مناصر للطرح الكتائبي أو "للمارونية السياسية" عموماً. أما أنا، فمع بدأت أتجرأ على تكوين وجهة نظر في "الشأن العام"، كان أبي قد غادر إلى أ ذوي مكانة مميزة في محيطي المباشر (مثل خالي صاحب الميول الشيوعية

الحزب السوري القومي الاجتماعي)، الأمر الذي ساهم لاحقاً دون أدنى شك في أن أرفض التماهي سياسياً مع "الفكر اليميني الطائفي" الذي ترعرعت في وسطه.

24 هذا فيما يتعلق بالجو السياسي ضمن عائلتنا حيث كانت أم بيار تتخذ دائماً الموقف النقدي من تحزّب والدي على حساب الاهتمام بعائلته، و"تهوّره" العاطفي في دعمه للكتائب لدرجة الإشهار العلني لهويته الحزبية وسط مدينة كانت تُعرف بعدائها للغرب وبحماسها المميز للناصرية والقومية العربية. ولكن ماذا عن التنشئة الاجتماعية البيْتيّة، وماذا عن تأثيرها على نظرتي إلى سكان مدينة طرابلس ومن ضمنها منطقة القبة، قبل بلوغي الخامسة عشرة من عمري أو يزيد؟

25 كان أهلي يقسّمون أهل المدينة إلى أكثرية سنية وأقليات مسيحية وأقلية علوية (كان التوصيف الشائع لهؤلاء من جماعات السنة والمسيحيين هو "النصيرية" وكانت التسمية تتردد على ألسنتهم من باب "التحقير" واستخدام النظرة الدونية لهم). أما جماعة السنة، فكانت مقسمة بدورها إلى "عيل الذوات" (وكنا نلفظها بلهجتنا المحلية بالزاي: الزوات) وهم الأقل عدداً، و"الزعران" وهم الأكثرية. من بين "الذوات"، كان والديّ يرددان على مسمعي أسماء من قبيل "بيت البيسار" وعائلة "المُقدِّم" و"عريضة"، لكن الفضاء الذي كنت أجول فيه لم يسعفني بلقاء أي من تلك العائلات. بالطبع كنت أشاهد وأتكلم مع العديد من الأفراد "السنة المسلمين" وكانوا إما من العيل المستورة أم من الفئات المتوسطة، لا سيما أصحاب المتاجر. إلا أنه وتحت تأثير "الرؤية" السائدة التي نشأت في كنفها، كانت التمايزات الاجتماعية الفعلية مغيّبة لصالح الانقسام المسيحي-المسلم المبسط "للعالم". وإلى جانب "الذوات" غير المنظورين و"النصيرية" المهمشين والمقْصيين، كانت صورة "المسلم الأزعر" ("الكاره للمسيحيين" و"الذي لا يجوز الثقة فيه" و"ضرّيب الموس" و"مغتصب الأولاد" وإلخ) هي الصورة الطاغية في ذهني. لذلك كان الخوف والرعب الداخلي يرافقني دائماً كلما مشيت في الأحياء المسلمة لسبب أو لآخر، لا سيما عندما أصبح عمري يسمح لي بالذهاب إلى منطقة "التل" لحضور فيلماً سينمائياً مشياً على الأقدام لتوفير أجرة "السرفيس". فالذهاب من منطقة القبة إلى وسط المدينة حيث تنتشر دور السينما، كان يعني بالضرورة النزول على "درج القبة" والمرور عبر المناطق "الشعبية" الفقيرة جداً وصولاً إلى جسر "نهر أبو علي" الذي يربط تلك المناطق بالمكان المقصود.

26 تلك كانت "رؤية الفضاء الاجتماعي" الذي كنت أتحرك فيه بانقساماته ووحداته التي يتألف منها، وهذا هو الموروث الاجتماعي الذي نجحت لحسن حظي في التخلص منه منذ النصف الأول من سبعينيات القرن الماضي. وقد تعمَّمت الخصائص البنيوية لذلك الموروث مع التطييف شبه الكامل للمجتمع اللبناني بعد أفول أوزار الحرب الأهلية العام ١٩٨٩. وأنا اليوم أراهن، مع العديد من أمثالي المشاركين في انتفاضة ١٧ تشرين الأول ٢٠١٩، على تحطيم هذا الموروث بصحبة "عروس الثورة"، طرابلس الفيحاء، مدينتي

مشاهد وتجارب بين القبة وطرابلس

أبو الزهور وبائع العلكة

أن تنشأ في حي القبة في طرابلس في ستينيات القرن الماضي، لهو أمر مثير سابقاً، كانت محلة القبة في ذلك العقد بمثابة ضاحية شرقية لطرابلس، ثاني وذات أغلبية سكانية من الطائفة السنية. إلا أن ذلك لم يلغِ التنوع المذهبي و الوافدين اليها، أكانوا من الريف الشرقي (منطقة زغرتا وبشري والضنية) أم م لعشرات العائلات التي نزحت إلى المدينة من جهات لبنانية أكثر بعداً من تلك الأب في الأسر الوافدة بوظيفة حكومية ما فيها.

من المشاهد التي يصعب أن أنساها وأنا في بداية العقد الثاني من عمري، ه الحي نطلق عليه جميعاً اسم "أبو الزهور". "أبو الزهور" كان رجلاً خمسينياً، ط

بغض النظر عن حالة الطقس. لم أذكر أني شاهدته لمرة واحدة حليق الذقن أو مصففاً شعره الكثيف والطويل إلى حد ما. أما الأبرز في شخصية "أبو الزهور"، فكان حبه البارز للزهور والورود (من هنا جاء تلقيبه باسم "أبو الزهور") المتمثل بوضعه لجميع أنواع الزهور والورود على معطفه أكان من الجهة البرانية للمعطف، أم من الجهة الداخلية له. كان معطف "أبو الزهور" أسود اللون وطويلاً لمستوى يكاد يلامس قدميه. عموماً، كان "أبو الزهور" يرتدي ثياباً رثة، وكان مهووساً بتزيين معطفه بالزهور والورود كل أيام السنة، لدرجة أنه كان يقف على قارعة الطريق ويفتح معطفه بيديه الاثنتين بحركة لا تخلو من التحدي، مبيناً المزيد من جميع أشكال الزهور والورود المشكوكة على بطانة المعطف الداخلية، كلما تحلق الصبية من حوله مرددين بصوت عالٍ "أبو الزهور، أبو الزهور...". وعندما يطفح الكيل معه لعدم توقف الأولاد عن مناداته بهذه الطريقة، يقوم "أبو الزهور" برمي الأولاد المتحلقين من حوله بالحجارة التي يلتقطها من الأرض، وذلك بعدما تفرغ جيوبه من الحصى التي يكون قد جمعها في جيوب معطفه الواسعة لردع الأولاد عن فعلتهم تلك.

29 لم أتجرأ يوماً على مشاركة أولاد الحي بمناداة ذلك الرجل المسن بـ"أبو الزهور". ولست أدري أكان ذلك بسبب الخوف منه أو الشفقة عليه. على أية حال، أنا الآن واثق أنني لست من الأشخاص الذين يستمتعون بـ"نواقص" الآخرين. وأذكر أيضاً مشاهدتي لحالة مشابهة، لكنها أكثر عنفاً، وكانت تحصل في محيط "التل" في مدينة طرابلس.

30 إنه مشهد "فهد" بائع التشيكليس (العلكة) المتجول (والأرجح أنه كان في العقد الثالث من العمر)، وهو يقف منحني الرأس على الرصيف نزولاً عند طلب المارة لضربه "سحسوح" على رقبته كشرط لشراء العلكة منه. كان هذا المنظر يثير فيّ الكثير من الاشمئزاز من الذين يقومون بضرب بائع "العلكة" على رقبته بطرق مختلفة (منهم من كان يقفز عالياً ويصفعه وهو يهبط على الأرض ثانية) ويكررون ضرباتهم قبل أن يتكرّموا ويشتروا منه. والأنكى في هذا المشهد المؤلم، كان لجوء "فهد" إلى ضرب رأسه الحليق على الحائط المجانب للرصيف، كلما كان أحدهم بضربه أكثر من مرة ثم يغادر المكان دون أن يفي بوعده ويشتري منه علبة التشيكلس. وكم من مرة شاهدت فيها وجه "فهد" مغطى بالدماء السائلة من رأسه وهو يلطمه على الحائط، إلى حين يتبرع أحد المارة بشراء "العلكة" بدلاً من الشخص الذي غدره تاركاً المكان دون أن يفي بوعده.

31 يأخذ ميشال فوكو على المجتمعات الحديثة قيامها باعتماد إستراتيجية العزل في تعاطيها مع "المختلين عقلياً"، بعيداً عن عيون الناس و"تحديقهم"، بهدف إعادة تأهيلهم وإلحاقهم مجدداً بالمجتمع "المنضبط". أما المجتمعات التي لم تعتمد هذه السياسية بصورة كاملة، كما في لبنان في عقد الستينيات من القرن الماضي (وإلى يومنا هذا إلى حد ما)، فيتم الاعتماد على عامة الناس للسيطرة على من يعاني من المرض النفسي أو العقلي. وكما في المستشفيات، كذلك في المكان العام، يخضع هؤلاء "المرضى" إلى أشكا
والجسدي.

المراهقة والجنس و"الأزعر الطرابلسي"

كانت بدايات سن المراهقة في محلة القبة مليئة بالمغامرات التي تشي بالس
العديد من المسائل. ومن بين تلك المسائل، كان الجنس ومختلف الطرق-الح
المحيط الذي كنت أعيش فيه. بالطبع، لا المدرسة ولا البيت كانا على يقين بأ
عليّ، كما غيري من أبناء جيلي، إلّا أن أسلك الطريق التي يتبعها المحيط العا
إليه. لكن تلك الطريق كانت مرسومة بتعليمات قطعية وغير معلّلة، تستند إ
صارمة. وبين ضغط هذه التعاليم وتلك المعايير، واختبار الرغبات الجنسية فم
معالم اكتشاف الذات جنسياً محكومة "برفاق الحي" الذي أسكن فيه.

33 كان "مرساي" أكبر مني سناً ومولعاً بتكبير عضلاته وممارسة حمل الأثقال. دعاني ذات يوم إلى سطح المبنى المؤلف من طابقين ويملكه والده "أبو غابي". وعندما سألته عن الداعي للذهاب معه إلى ذلك المكان، أجابني: "هناك تنتظرنا مفاجأة سارة". وكانت المفاجأة دعوته لي إلى "التلصص" من سطح المبنى على امرأة وزوجها في الفراش. تبين لي لاحقاً أن الرجل وامرأته قد تزوجا حديثاً، والزوج جندي في الجيش اللبناني وملتحق بالثكنة المجاورة على طريق الضنية، فكان يستفيد من قرب سكنه من "ثكنة القبة" ليأتي فترة الغداء ويقضي بعض الوقت مع زوجته الشابة. لا شك أن المشهد كان مثيراً بالنسبة لي، رغم أن الرجل وزوجته كانا مستترين تحت غطاء السرير، وكان ينبغي علينا أن نتفادى رؤية وجهيهما خوفاً من أن يكتشف أحد الطرفين الموقع الذي نتلصّص فيه عليهما في وضح النهار. كان المشهد مناسبة لاختبار حالة الاهتياج الجنسي لفتى لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، وهو يشاهد للمرة الأولى في حياته شخصين يمارسان الجنس بصورة حية... وفي مناسبة أخرى، اتفقت أنا ورفيق الحي، إميل، أن نلتقي في باحة الدرج، في الطابق الأخير لبناية مجاورة لمنزله في الحي الذي كنا نسكن فيه. وتم ذلك بعد أن نجح إميل بإقناع ابنة الجيران لتلتحق بنا، ونقوم بمغازلتها بطريقة "ولادية" تتماشى مع أعمارنا في ذلك الحين. وبعد انقضاء هذه التجارب، بدأت النساء اللواتي كن يزرن والدتي أو اللواتي كنّ في الحي المجاور يلفتن انتباهي ويحركن أحاسيسي الجنسية في بعض الأوقات.

34 هكذا بدأت، وأنا في بداية مرحلة المراهقة، أتلمس معنى الإثارة الجنسية وأتحسس الرغبة في الانجذاب إلى الجنس الآخر. وصدف أن تجاربي لم تنزلق بي إلى خيارات كان يمكن أن تؤذيني أو تؤذي الآخرين، لا سيما وأنا في زمن وفي مجتمع لا يعطي وزناً للتربية الجنسية (ولا التربية الوطنية بالطبع).

35 إلّا أن الاختبار المبكر لما له علاقة بالجنس لم ينحصر في تجارب فيها مزيج من الطرافة واكتشاف المتعة بالسر بعيداً عن الرقابة الاجتماعية. ففي بدايات سن المراهقة، كانت الصورة النمطية الملتصقة بـ"الأزعر الطرابلسي" لا تفارق وعيي كلما دفعتني الظروف، إما لوحدي أو مع رفاقي، للتواجد في الأمكنة العامة في مدينة طرابلس (اللعب في الأحياء المجاورة والنزول إلى البلد على درج القبة الموصل إلى نهر أبو علي والتواجد في دور السينما وإلخ). وإلى جانب التنبيه من أن "الأزعر الطرابلسي ضرّيب موس"، كانت الشائعة النمطية عنه تضيف أنه أيضاً "طِبْجي"، وهي كلمة عامية تعني أنه مثلّي ولا يتردد في "اغتصاب" الأولاد والمراهقين. بقيت هذه الصورة تقلقني في بدايات سن المراهقة، وأعتقد أنها ولّدت لدي شعوراً بـ"الخواف" من المثلية عموماً لم أتحرر منه بالكامل لسنوات عديدة. وبالنتيجة، صرت في ذلك الوقت أتجنب التواجد بمفردي في أمنكة عامة لا أعرف فيها أحداً، أو الذهاب لوحدي إلى دور السينما.

36 أسوق هذا الكلام في الوقت الذي لم أتعرض فيه لأي تحرش جنسي من هذا القبيل، بل إن ذاكرتي عن طرابلس
وأهلها والأماكن العامة التي شاءت الظروف أن أذهب إليها، تشير إلى أن الأ
طيبين، لم يفعلوا أي شيء لتبرير الخوف (الفوبيا) الذي عانيت منه لعدة سنو
النمطية عن "الأزعر الطرابلسي" آنذاك، كانت بسبب التعصب الطائفي بين ال
من تشويه لصورة "الآخر" تسهيلاً لشيطنته وتبريراً للبقاء بعيداً عنه اجتماعياً
المثلية ظاهرة عابرة للطوائف، ولا ينبغي أن تستدعي الخواف أو حتى الحذر.
واليافعين القاصرين، فهو تصرف مدان ولا ينحصر بدين أو ثقافة أو مجتمع م

صياغة الانتماء إلى لبنان

كانت طرابلس في الستينيات مليئة بالمفاجآت والإثارة بالنسبة لفتى يسكن
يصارع فيها الأب ليمنع سقوطها إلى درجة الفقر على سلم الهرم الاجتماعي.
أسباب عديدة، منها ما يعود إلى ما قبل سن المراهقة، والبعض الآخر يتعلق
الفترة الأولى، كنت أنتظر اقتراب عيد الميلاد ورأس السنة لأذهب مع والدتي
بعض الألبسة والأحذية لارتدائها في عطلة العيد. بالطبع، لم يكن بمقدور الو

دفعة واحدة. لذلك كانت تتحايل على القصور المادي باعتمادها شراء بعض الألبسة دون أخرى، مركزة على الضروري منها. فمثلاً، كانت تعتمد دائماً على شراء كنزة الصوف للتعويض عن غياب المعطف أو الجاكيت، لا سيما وأن عيدَي الميلاد ورأس السنة يقعان في "عزّ" فصل الشتاء. وعندما لا يتوفر المال لشراء الكنزة الجاهزة من محلات "فتّال" (محل ألبسة للفئات المتوسطة)، كانت الوالدة تعتمد على شراء كباكيب من الصوف لحياكتها يدوياً بالسنارة. وما زلت أذكر الفرحة التي كانت تغمرني، ليس فقط بسبب ترقبي للحصول على الثياب الجديدة والحذاء الجديد، وإنما أيضاً بسبب ما كنت أشاهده في طريقنا إلى محلات الألبسة والأحذية: محلات عديدة ومتنوعة، منها لبيع الألعاب ومنها المتخصص باستيراد آخر "موضة" الألبسة وغيرها من دول أوروبية مثل محلات "أ بي سي"، مروراً ببائع "الخرّوب والجلّاب" إلى جانب بائع "غزل البنات" في بعض الأحيان. وما لا يمكن محوه من الذاكرة، كانت الزيارة شبه الدائمة للوالدة لمحل بيع القبعات النسائية الواقع في شارع الراهبات. كانت أم بيار مولعة بالقبعات النسائية المعروضة دائماً في "فيترين" ذلك المحل الصغير الذي تقوم بتشغيله امرأتان في العقد الرابع من العمر. وغالباً ما كانت زيارة أم بيار المتكررة لذلك المكان تنتهي بالتحسر الذي سرعان ما ترتسم معالمه على وجهها لعدم قدرتها على شراء ما كانت تتمناه وتشتهيه. غير أن الأجمل في تلك الرحلات التي كنا نقوم بها قبيل موسم عيدَي الميلاد ورأس السنة، كان الشعور الذي يتملكني لدى مرافقتي لوالدتي وهي متوجهة إلى مدينة طرابلس. كان ذلك قبل أن أبلغ الثالثة عشرة من العمر، وكنت أشعر بأمان وطمأنينة لا مثيل لهما بسبب الرعاية والاهتمام اللذين كنت ألقاهما من أم بيار. إنه شعور بسعادة لا يمتلك أحد القدرة على منحها إياك سوى أمك، في تلك المرحلة من العمر.

38 وبينما كان والدي مهاجراً إلى الكويت سعياً وراء العمل، كانت الوالدة تعتزم الذهاب إلى بيروت لقضاء بعض أيام عطلة عيد الميلاد ورأس السنة مع والدتها، أم رامز، ومع أختها وإخوتها وعائلاتهم الذين كانوا يسكنون في برج حمود، في محيط كنيسة مار يوسف (استمرت هذه العادة لدى أهلي لغاية سفرنا إلى أستراليا نظراً لمتانة العلاقة بين أم بيار وعائلتها، عكس الحالة التي كانت سائدة بيننا وبين أعمامي وعائلاتهم). وللوصول إلى برج حمود، كانت الوالدة تقصد محطة "سفريات الأحدب" الواقعة في وسط حي التل. وما أذكره بوضوح في هذا السياق، كانت أولاً رائحة الفلافل الشهية الصادرة من المحلات المجاورة لكراج الأحدب. وكم كنت من المحظوظين عندما كان بمقدور الوالدة أن تشتري لي (ولإخوتي وأختي غيلدا) سندويشةً نتناولها قبل حلول موعد انطلاق "البوسطة" إلى بيروت. إنها رائحة أقراص الفلافل وطعمها اللذيذ وهي لا تزال ساخنة. لكن سخونتها كانت ملطفة ببرودة الطحينة والبندورة والبقدونس والنعناع والبهار الأحمر الحار. وكنت أنتظر اللقمة أو اللقمتين الأخيرتين من السندويشة الملفوفة بالورق الأبيض لأتلذّذ بهما وقد تجمعت الطحينة السائلة في أسفلها. بصراحة تامة أقول إنني لا أزال أتقصد شراء سندويشة الفلافل لأستمتع بذلك الجزء الأخير منها، كلما قصدت بيروت، أو طرابلس لسبب أو لآخر. استعادة هذه المتعة التي نشأت
"الهابيتوس" الذي يسكنني (الهابيتوس مفهوم استخدمه بورديو ليشير إلى
والرغبات وما إلى ذلك، التي يستبطنها الفرد من البيئة التي ينشأ فيها. وهو
يُسْتحْضر حسب الظروف التي يواجهها).

أما الأمر الآخر الذي لا يفارق ذاكرتي أيضاً عن تلك المرحلة، فهو إصابتي بالد
إصابتي بها ملازمة لكل رحلة إلى بيروت، حتى ولو كنا في سيارة سرفيس بدل
من الأحيان، كانت إصابتي بالدوخة تنتهي بالغثيان لدرجة "الاستفراغ" وما ينت
للأشخاص من حولي، وعلى رأسهم أم بيار. ولولا متعة اللقاء مع أخوالي وخال
أنتظرها من خالي سركيس (الوحيد من بين عائلة الوالدة الذي كان قادراً على
وإخوتي، بمناسبة الأعياد)، لما كنت أتصور أنني سأتحمل الدوخة ومضاعفاتها
بيروت. وكم كانت فرحتي كبيرة عندما اكتشفت شفائي من الإصابة بالدوار و

40 في مرحلة المراهقة، بدأت علاقتي بمدينة طرابلس تتخذ منحى آخراً. فبعد بلوغي الخامسة عشرة من العمر، صرت أذهب إلى وسط المدينة بمفردي أو بصحبة بعض الرفاق. وأصبحت رحلاتي إليها بدافع اهتمامات شخصية، لكنها محكومة دائماً بإمكانات مادية شبه معدومة. فعندما كان يتوفر لدي ما يكفي من المال لحضور فيلم سينمائي (مثل فيلم وود ستوك أو من أجل حفنة من الدولارات)، كنت أتوجه إلى المدينة وأعود إلى البيت في القبة مشياً على الأقدام لعدم توفر أجرة السرفيس، بعد احتساب ثمن بطاقة الدخول إلى السينما. ونادراً ما كان يبقى لدي من المال ما يكفي لشراء سندويشة فلافل. أما الذهاب إلى محل "الحلاب" أو "العرجة" لشراء الكنافة وما شاكلها، فكان ذلك من "سابع المستحيلات".

41 وما لا يمكن نسيانه خلال الرحلة إلى المدينة مشياً على الأقدام، كان لاعب "الكشتبان" أو لاعب "التّلتْ وراق" الذي كان يرابط على جسر نهر أبو علي. بالنسبة لي في تلك المرحلة من العمر، كانت المشاركة في تلك الألعاب مغرية جداً بسبب حذاقة الذين يديرونها والحيل التي يتبعونها، خصوصاً مع المارة الوافدين من الأرياف المحيطة. ونظراً لـ"الغش" الذي كانوا يمارسونه على أبناء الريف البسطاء أو المراهقين ممن هم على شاكلتي، كانوا ملاحقين من الشرطة، وغالباً ما شاهدتهم يهرولون متأبطين الطاولة التي يمارسون لعبتهم عليها، هرباً من الشرطة حتى لا تمسك بهم. كنت أشعر بالزهو لقدرتي على تنفيذ هذه الزيارات بدون الأهل. وكنت أصمم على الذهاب إلى المدينة كلما علمت بوصول فيلم سينمائي جديد إلى صالاتها يتعلق بموضوع يجتذب اهتمامي، أكان "أكشن موفي" أم فيلماً يتعلق بمسألة اجتماعية أو سياسية مثيرة. وبالطبع كانت الصالات التي تعرض هكذا أفلام قليلة، ومقصودة غالباً من جمهور الطلاب وفئات الطبقة الوسطى النامية في العقد الستين من القرن الماضي. ورغم ذلك، لم يخل الأمر أحياناً من إطلاق التعليقات الطريفة من بعض المشاهدين تعليقاً على مشهد ما مثير، لا سيما إذا تخللته قبلة عاطفية، أم شيء من التعري الطفيف من إحدى الممثلات. وغالباً ما كان الجمهور يتجاوب مع تلك التعليقات بإطلاق الضحك بصورة جماعية.

42 في بدايات المراهقة، اكتشفت بسرعة متعة اللعب بالباسكتبول وركوب الدراجة الهوائية. ممارستي للعبة الباسكتبول كانت متكررة وسهلة المنال، لأنها متوفرة مجاناً في مدرسة الآباء البيض التي كنت أدرس فيها. أما ركوب الدراجة الهوائية، فكانت نادرة جداً لاضطراري لدفع بدل مالي للحصول عليها، وارتفاع البدل كلما طال وقت الاستعمال. على أية حال، ركوب الدراجة الهوائية كان أكثر إثارة لاعتبارات لها علاقة بتمكيني أنا والأصحاب من التنقل إلى أماكن بعيدة وبمتعة القيادة على الطريق العام، ولو على دراجة هوائية. وبما أن طريق الضنية كانت أقل ازدحاماً من طريق زغرتا، كنت أنا وورفاقي نتقصد ركوب الدراجة على تلك الطريق وصولاً إلى حقول ضيعة عَلما لقطاف اللوز الأخضر، بعد ملاقاة رفيقنا بدوي ابن الضيعة. وبالطبع، كان بدوي ووالده يرحبان بنا بوجه بشوش ولطافة مميزة.

كذلك كانت متعة الذهاب إلى حقل الزيتون الذي كنا نقصده كلما حان وقت ا
عودته من الكويت في بداية ستينيات القرن الماضي، من مشاركة صديق له
أرض صغيرة في محيط بلدة مجدليا. وكانت تلك الأرض مزروعة بشجر الزيتو
(أي شهري تشرين أول وتشرين ثان) لتصطحبني أنا وإخوتي إلى تلك الأرض ا
ما يتساقط منه على الأرض. والجميل في الأمر، كان اجتماعنا وقت الغداء لتن
بعد أن نضع شرشفاً ليفصل التراب وما عليه عن ملامسة أجسادنا. في تلك ا
والتعاضد جميلاً للغاية، وكانت البسمة لا تفارق وجه أمي خصوصاً عندما يكو
من قسمة المحصول لاستخراج "مونة" العائلة من الزيت من جهة، و"كبس" ا
المناسب من جهة أخرى. وفي منتصف النهار، كنت أتبرع دوماً بالذهاب إلى ن
قريبة من حقل الزيتون لجلب مياه شرب باردة ومنعشة للجميع.

الحوادث والذكريات التي تغطي مرحلتي الصبا والمراهقة قبل مغادرتي إلى
أهميتها تكمن في أنها شكّلت العناصر الحميمية لانتمائي إلى لبنان، المكان و

اختلاطه مع عناصر حميمية لانتماءات أخرى بفعل الهجرة إلى أستراليا والعيش مع "أهلها".

رفاق مدرسة، خيارات متفارقة/متشابهة

45 المدرسة التي كنت أدرس فيها وتدعى مدرسة البندكتان، كانت تقع على طريق الضنّية الموازية لطريق زغرتا-الأرز، على بعد كيلومترين من منزلنا. وكانت إرسالية الآباء البندكتان فرنسية تتولى إدارة المدرسة بالتعاون مع موظفين إداريين لبنانيين. أما الطاقم التدريسي، من معلمين ومعلمات، فكان بمعظمه من لبنان. صحيح أن المدرسة كانت خاصة، إلا أن الأقساط التي كانت تتقاضاها لم تكن تضاهي أقساط مدارس خاصة أخرى كمدارس "الأمريكان" والفرير" و"الطليان"، التي كانت تتمتع بشهرة تعليمية عالية تفوق شهرة مدرسة الآباء البيض. على العموم، كانت مدرسة البندكتان مدرسة لأبناء الأسر أصحاب المداخيل المحدودة الذين يجهدون لتدريس أبنائهم وبناتهم في مدرسة خاصة تعلم اللغة الفرنسية، دون الاضطرار إلى إرسالهم إلى مدراس خاصة تتطلب أقساطاً ليست بمتناولها، وذلك بسبب المستوى الأفضل لخدمة التعليم التي تقدمها للطلاب. أضف إلى ذلك، أن مدير المدرسة كان يرأف بحالة العديد من العيل التي لم تتمكن من تسديد كامل الأقساط عن طريق تخفيضها بنسبة مئوية، بل إلى إلغائها بالكامل في بعض الحالات.

46 خلال سنوات الدراسة في المرحلة التكميلية، تعرفت على أساتذة ورفاق ورفيقات صف، وقمت بأنشطة عديدة. كل ذلك لا يزال يسكن في مخيلتي للآن. من بين الأساتذة الذين توالوا على تدريسي، كان الأستاذ فهد الأكثر تميزاً من حيث تعامله اللائق مع التلاميذ، وأسلوبه السلس في تدريس مادة الأدب العربي. للأسف، كان علي أن أهاجر إلى سيدني مع أمي وإخوتي مع نهاية صف البريفيه، الأمر الذي أجبرني على الانقطاع عن مواصلة دراستي الممتعة لمادة الأدب العربي مع الأستاذ فهد وخسارة علاقة الصداقة التي أنشأتها معه. أفضل الأساتذة هم الذين يجيدون شرح المادة بمنطق متماسك وبأسلوب شيق ويصيغون علاقة ندية مع تلاميذهم. بالمقابل، أستاذ العلوم كان على اطلاع كامل بالمواد التي يلقنها لكنه لم يكن قادراً على إيصالها بأسلوب تحليلي بدل أسلوبه المنطقي (الميكانيكي) الجاف. أما أستاذ مادة الأدب الفرنسي، فحدِّث ولا حرج. كان موسيقياً يعزف الساكسيفون في الملاهي ليلاً، ويأتي إلى المدرسة متأخراً في أغلب الأحيان، وغير جاهز لتعليم المادة بصورة مدروسة. بالنسبة لي شخصياً، هذا النوع من التعليم لم يفلح أبداً في تدريسي المادة رغم اهتمامي بذلك. وأنا أعتقد في حقيقة الأمر، أن المدارس عموماً هي امتداد ممأسس institutionalize للتفاوتات الطبقية وغيرها على الصعيد الثقافي. وتظهر تلك التفاوتات أولاً في صفوف التلامذة والخلفية الطبقية التي يتحدرون منها وما يملكونه من "هابيتوس" يتماشى مع تلك الخلفيات. كما يظهر أيضاً في الكادر التعليمي والإداري للمدرسة. وأخيراً، يكون الأداء العام للمدرسة كمؤسسة تعليمية-إدراية نتاجاً ط
اليومي في الحياة اليومية للمدرسة. وفي هذا السياق، تقوم المؤسسات التع
المتنوعة في المجتمع دون إغفال تجاوبها الدائم مع متطلباته "التعليمية" وه
وتسويات. وبالطبع، مدرسة آباء البيض التي التحقت بها، لم تشذ عن هذه الذ

كان الطلاب في المدرسة، وفي الصفوف التي التحقت بها، مجموعة متنوعة
من الريف اللبناني واستوطن في محلة القبة سعياً وراء العمل، ومنهم من كا
القاسم المشترك لغالبية الطلاب، كان انتماءهم إلى الطوائف المسيحية، مار
الاجتماعية، كانت غالبية الطلاب تتحدر من أوساط عمالية مأجورة وأصحاب م
العام (أبناء لأفراد في الجيش اللبناني مثلاً) بدرجة ما دون الوسط. في ضوء
يعج بمروحة واسعة من السلوك الاجتماعي والأداء التعليمي. منهم مَن كان
وصولاً إلى المستوى الجامعي كطريق حتمي للترقي الاجتماعي والاقتصادي
تنتمي إلى الشرائح الدنيا من الطبقة الوسطى تزرع هذه الفكرة في أذهان أو
المنشود. غير أن قلة من هؤلاء الطلاب تفوز في تحقيق هذا الهدف، ومنهم،

صعوبة في تحقيق هدفه الأكاديمي بسبب تعارضه مع موروثه الثقافي والاجتماعي الذي "يتلبّسه" رغم وهم الترقي الاجتماعي المتولد من التحسن النسبي في موقع أسرته المادي. أما غالبية الطلاب، فكان مصيرهم التوقف عن الدراسة مع نهاية السنة الرابعة التكميلية، وتحولهم إلى أصحاب مهن حرة أو موظفين عاديين بحكم استزلامهم السياسي، أو الهجرة. على أي حال، هذا ما تأكد لي بعدما تتبعت مسارات معظم الطلاب الذين كانوا معي في صفوف المرحلة التكميلية. كان بعض الطلاب، عوضاً عن ضعفهم في مجال الدراسة، يكتسبون شهرتهم عن طريق براعتهم في المجال الرياضي أو قدرتهم المميزة على "التنكيت" أو تخويفهم للطلاب استناداً إلى قدرات جسدية بارزة لا يتورعون في استخدامها في النزاع معهم.

48 من بين الطلاب المتحدرين من الريف الماروني وينتمون إلى أسر من الفئات الدنيا للطبقة الوسطى، كان لديّ رفيقان قريبان هما نبيل وريمون من قرية حدشيت، ورفيق قريب آخر من بلدتي زغرتا، اسمه فلاديمير. جميعهم أكملوا دراستهم الجامعية وأصبحوا من فئة المهندسين. والملفت أن رفيقين من رفاقي الثلاثة هاجرا من لبنان، الأول إلى اليونان والثاني إلى أمريكا. وعلمت لاحقاً، أن جميعهم انخرطوا في العمل السياسي لفترة زمنية معينة أدت إلى تبني ريمون وفلاديمير خط منظمة العمل الشيوعي، بينما التزم نبيل خط الكتائب ولاحقاً القوات اللبنانية. والملفت أكثر فأكثر، هو ليس فقط استكمال دراستي الجامعية وتخصصي في علم الاجتماع بعد مغادرتي لهم مع نهاية السنة الرابعة التكميلية إلى سيدني، وإنما أيضاً انجذابي إلى خط المنظمة، كما فعل فلاديمير وريمون، دون أن أدرك ما حصل معهما لفترة لا تقل عن عشرين عاماً.

49 أندريا كان من رفاق الصف، وكان قليل التفاعل معنا ويفضل أن يبقى وحيداً في أغلب الأوقات. انسجاماً مع هذا الطبع، كان أندريا يمضي معظم الوقت خلال الصف وهو يرسم أشخاصاً من حوله بطريقة كاريكاتورية. وعلمت أيضاً فيما بعد أنه أصبح قريباً من الحزب الشيوعي اللبناني، وأنه هاجر إلى فرنسا مع بداية الحرب الأهلية في لبنان. وفي فرنسا، امتهن فن الرسم إلى أن وجد ميتاً منذ عدة سنوات في شقته الباريسية.

50 مصائر لخمسة أشخاص تتشابه في المسعى لاستخدام الدراسة للارتقاء الاجتماعي، ويتشارك أربعة منهم في تبني الفكر الماركسي واليساري عموماً، وفي هجرتهم من لبنان سعياً للعمل وتحقيق أحلامهم في الخارج. فلاديمير توفي بسكتة قلبية وهو يعمل في الأردن. وتوفي أندريا في فرنسا دون أن أتمكن من لقائه بعد مغادرتي للبنان عام ١٩٧١. نبيل لا يزال في لبنان، وريمون في الولايات المتحدة. وأنا لا أزال أتنقل بين بيروت وسيدني منذ عام ٢٠٠٠ أمارس مهنة التعليم الجامعي، وأطمح دائماً لتجديد اللقاء مع رفاق المدرسة الذين لا يزالون في قيد الحياة.

جذور اجتماعية لخصائص فردية

المنزل الذي كنا نسكن فيه في القبة كان كناية عن غرفتين و"كوريدور" في ال
الصالون من جهة اليمين، أو إلى غرفة مقابلة، من جهة اليسار. الجزء الأخير م
بعد البابين المتقابلين الموصِلين إلى الغرفتين المشار إليهما، كنا نعزله بشرش
حبل رفيع، لأجل "ضب" الفُرش والأغطية التي كنا نستعملها للنوم ليلاً. كانت
جهة، مكان لاستقبال الزائرين غير المقربين، أو لاستقبال الأقارب وأصدقاء الع
كعيد الميلاد ورأس السنة والاحتفاء بعمادة أحد الأطفال في عائلتنا. ومن جه
أخوتي الأصغر مني ومن أخي الأكبر بيار (أي غيلدا وجون ولاحقاً ريتا). إضافة
في الغرفة ذاتها، ولكن على سرير منفصل، يرتفع قليلاً عن مستوى الأرض. أ
وظائف عديدة ومتنوعة. فهي أولاً مطبخ لتحضير الأكل، ومكان لتناول وجبات
العائلة تستخدم هذه الغرفة للنوم، إذ كان يتم تحويل "الصوفا" ليلاً إلى سرير
اشتريناه ووضعناه في الغرفة ذاتها لينام عليه أخي الأكبر بينما كانت "الصو
كانت توجد التواليت والحمام وفيه كان أفراد العائلة "يقضون حاجتهم" ويغتس

الوالدة بتسخين المياه وغسل الألبسة وغيرها. آنذاك، أي قبل عام ١٩٧١ لم نكن نملك براداً ولا غسالة ولا تلفزيون (في الأيام الأولى لظهور التلفاز، كنت أذهب إلى منزل الجيران في المبنى المجاور لمنزلنا لأشاهد برنامج "بونانزا" و"الهارب"، بصحبة أولاد الحي، وكانت صاحبة المنزل المضيفة تطلب منا الجلوس على السجادة أمام التلفاز بعد خلع أحذيتنا). هذه هي مواصفات المنزل الذي ولدنا فيه، أنا وأخوتي، ونشأنا بين جدرانه. وهو المنزل نفسه الذي كان والدي (أو والدتي في غياب الوالد)، يستقبلان فيه الأقارب والجيران وأحياناً يقيمان "العزايم"، على قلتها بالطبع، نظراً للموارد المالية الشحيحة. لا أذكر أنني كنت أتأفف من الظروف التي كنا نعيش فيها، وربما كان ذلك يعود إلى عدم معرفتي في السنوات الأولى من عمري على الأقل، بالظروف المعيشية للعيل التي كانت تتمتع بظروف مادية أفضل. فمعايير القبول والرفض هي في النهاية وليدة الضرورات التي تتحكم بحياتنا. والملفت أن مدخلي لاحقاً لرفض ونقد الظروف المعيشية التي كنا نعيشها، إلى جانب العديد من العائلات التي كانت تنتمي إلى وسطنا الاجتماعي، كان مدخلاً سياسياً يسارياً. ما أتذكره أيضاً بالنسبة إلى منزلنا في القبة، هو اكتشافنا لوجود فأر، أو أكثر، مختبئاً بين العفش بعد مغادرتنا لقضاء فصل الصيف في إهدن. وكيف كان والدي يلاحقه بغضب ماسكاً فردة حذائه للقضاء عليه. وفي مناسبة لا أنساها، كانت الطريدة جردون من "الحجم الثقيل"، مما أغاظ والدي أكثر فأكثر، وجعلني أرتعب وأنا أراقب مطاردته له. مع مرور الزمن، اكتشفت أنني أعاني من خواف الفئران والجرادين والصراصير أيضاً. فإذا صادفت الظروف وشاهدت فأراً أو حتى صرصوراً، أرتعب لدرجة لا تتناسب أبداً مع حقيقة "الخطر" الذي يواجهني، أو المهمة التي تنتظرني، أي القضاء على أي منهما. وكم حاولت أن أتخلص من هذا الخواف مستخدماً التفكير المنطقي في مقاربة هذا "التحدي"، إلا أنني لم أفلح في ذلك أبداً. ومن الآثار التي تركتها نشأتي في منزلنا في القبة على تصرفاتي اليومية، هي عدم قدرتي على قضاء حاجتي في مرحاض في منزل غير منزلي، خصوصاً إذا كان مرحاضاً للعموم. وأعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى مواصفات المرحاض في منزلنا في القبة (رغم تأمين الوالدة الدائم لنظافته، كان المرحاض من النوع الذي نطلق عليه اسم "عربي" ومعرض لاجتذاب الصراصير بين الحين والآخر، أو هكذا كنت أعتقد) والتصاقه بغرفة الجلوس. والمرحاض كان عملياً في غرفة الجلوس والمطبخ، وكنت أتردد للدخول إليه كلما وجدت أحد الزوار في المنزل. وبقيت هذه العادة متحكمة بسلوكي للآن إذ لا أدخل التواليت إلا في منزلي وهي في الأساس مصممة، كما في المنازل والشقق الحديثة، لتكون بعيدة عن المساحة المخصصة لأهل البيت وزواره. ولاحقاً اكتشفت كذلك رغبتي غير المبررة منطقياً في عدم مشاركة الأصدقاء في مشاريع "الكامبيغ"، وذلك بسبب خوفي الهوسي من النوم في "البرية" ولو في خيمة محكمة الإغلاق. خواف الحشرات وإصراري على عدم استخدام المرحاض العمومي وأماكن الاستحمام العمومية، تكمن وراء هذه التصرفات التي كانت ولا تزال تثير الاستغراب لديّ ولدى العديد من الأصحاب والمعارف. إذا أمعنا النظر جيداً في طباع الإنسان وتصرفاته، نجد أنها نتاج ظروف وعوامل كبيرة وصغيرة، والكبير منها يشتمل على الطبقة الا
التصرفات هي تجليات مسلكية لتلك العوامل، تُصاغ بدورها (أي التصرفات) ع
تحصى، تدخل فيها الأفعال "الإرادية" و"اللاإرادية"، في خضم التفاعل والنزاعا
وأمكنة محددة.

زغرتا-إهدن، بين الأهل و"الفضاء العام"

أن تولد في القبة، في طرابلس وتنشأ فيها لا يعني قطع العلاقة مع زغرتا. فز
مسقط رأس أبي وأمي والمكان الذي لا تزال غالبية أفراد عائلة طبر تسكن في
منزلهما الذي يقع في الحي الشرقي من البلدة، قرب كنيسة سيدة زغرتا، ليس
شهراً كاملاً، سعياً لتقديم يد العون للوالدة إثر وضعها لمولود جديد أو انتكاس
كانت عمتي نزها العزباء تسكن معنا لتقوم بـ"الواجب" نفسه عندما يتعثر مج

حوالي الخامسة عشرة من عمري، بدأت أغامر في الذهاب إلى زغرتا لوحدي د
لتحقيق نوع من "الاستقلال" عن العائلة، والرغبة في تمضية عطلة يوم الأحد

"الرفقة". إضافة لذلك، كنت أقصد الضيعة لتناول الغذاء عند جدتي مهجت التي كانت تبدع في تحضير الكبة الزغرتاوية بأنواعها المختلفة، كما جرت العادة أيام الأحد. وأحياناً كنت أذهب إلى زغرتا يوم السبت، لآكل "المجدرة الحمرا" التي كانت جدتي تبدع أيضاً بطبخها. في الواقع، لا أزال أستخدم هذه الوجبة معياراً لـ"حكمي" على جميع أنواع المجدرة، أكان في لبنان أم في أستراليا. إنها مجدرة جدتي المكونة من الرز وحبوب الفاصوليا الحمراء والبصل المقلي حتى السواد؛ الوجبة المشهورة في المنطقة وجوارها. أخيراً يجب أن أبوح بوجود عاملٍ "ذاتي" آخر بقي يدفعني للذهاب إلى زغرتا يوم الأحد لفترة طويلة، رغم معارضة أهلي لكثرة زياراتي، وهو أمر دفع والدي يوماً ليعاقبني عليه بالضرب. إنها فرصة الحضور المجاني لفيلم في "سينما البايو"، وذلك بحجة رفقتي لابن عمي مرسال، والصحبة الوطيدة التي كانت بين عمي أبو مرسال وصاحب صالة السينما، على ما بدا لي لاحقاً.

54 هذه الأمور لا تزال محفورة في ذاكرتي فيما يخص العائلة في زغرتا. أمّا الضيعة كـ"فضاء عام"، فكانت آنذاك مزيجاً من الألفة والقيود المصحوبة بـ"خبريات" تثير الحذر، إن لم نقل "الرعب" المكتوم. كان بعض الأهالي الذين يصادفون وجودي في الضيعة يصفونني بالولد "الغريب"، وهو أمر تكرّس أكثر بسبب لهجتي "الطروبلسية" التي كانت واضحة كلما تكلمت مع أحدهم. ومع مرور الوقت، أصبحتُ معروفاً لديهم باسم "ابن الطبر الساكن في القبة". هكذا أصبح انتمائي مزدوجاً ومنقوصاً من طرف أهالي الضيعة وسكان القبة وطرابلس معاً. كان سكان القبة وطرابلس يشيرون إلينا بـ"الزغرتاويّة الذين يسكنون في القبة". وبعد هجرتي إلى أستراليا وعودتي المتكررة إلى لبنان، استمريت في الشعور بالانتماء المزدوج، ولو بصيغة مختلفة وأكثر شمولية، إذ لم أكن لبنانياً كالمعهود في لبنان ولا أسترالياً بالمعنى السائد في بلاد الكنغر. إن العيش المعاصر وما يفرزه من هويات متحوّلة ومتنوّعة يناقض رأسياً الهوية الثابتة والأحادية التي تميّز العيش في القرية التقليدية أو تلك المتحدرة من فكرة الانتماء القومي المتجانس.

55 ولكن لنعد إلى اختبار "الفضاء العام" في زغرتا في منتصف الستينيات من القرن الماضي. ما يحضر هنا فوراً إلى الذاكرة هو مشهد المسدس الذي كان على "خصر" أغلب الرجال وهم يتمشون في الشوارع. هذا المشهد كان صاعقاً في البداية لفتى في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، ولكن سرعان ما أصبح مألوفاً لي. حينذاك قيل لي إن الرجال يحملون المسدسات دفاعاً عن النفس من اعتداء محتمل من "قبضايات" العائلة الخصم. وكنت أتساءل لماذا العداوة في الأساس بين العائلات؟ ولماذا لا تقوم الدولة بإلقاء القبض على "القبضايات" وتوفر الحماية والأمن للجميع؟ أسئلة كانت تجول بخاطري بين الحين والآخر، ولكن دون الوصول إلى أجوبة شافية بالنسبة لفتىً وُلد وترعرع في القبة. أحياناً عندما تكون "الأجواء متوترة" في الضيعة، كان جدي يطلب مني ألّا أتجول في أحياء يسكنها أبناء العائلة المتخاصمة مع عائلة "بيد
تمنح "ولاءها" السياسي إلى عائلة "الدويهي" بزعامة النائب الأب سمعان. ف
خوفاً عند مجيئي إلى زغرتا، في حال استطعت القدوم إليها أصلاً. وفي تلك ا
عن "حركة" تعارض بقوة "الاقتتال العائلي" الدوري في الضيعة، تقودها فئة
الأب هيكتور الدويهي. وفي يوم من أيام تلك المرحلة، قادتني حشريتي للذه
شباب الحركة والأب هيكتور "المتمرد" على الزعامة العائلية ينظمون لقاءً عا
أن دافعي للذهاب إلى ذلك المكان كان تعاطفي "العفوي" مع أهداف "الحر
لنضالها ضد "العائلية" وما تنتجه من دورات عنف موسمي بين أبناء "العيَل"

وبعد هجرتي مع أهلي إلى أستراليا عام ١٩٧١، علمت أن "زعماء زغرتا" نجحوا
المعوشي لينقل الأب هيكتور إلى المكسيك بعد اتّهامه بالكاهن "الأحمر". كا
أمثاله إلى تيار "ثوري" في الكنيسة الكاثوليكية يطلق على نفسه اسم "كنيس
الشباب الزغرتاوي" التي نما عددها مع نهاية الستينيات والنصف الأول من ال
وشابات من مختلف عائلات زغرتا، وتعرّضت لضغوطات وتهديدات عديدة مر

اندلعت حرب الـ٧٥ الأهلية وانفرط على إثرها عقد الحركة وحوصر نشطاؤها، وصولاً إلى حرق المركز الذي كانت تجتمع فيه.

57 في الفضاء العام في إهدن التي كان أهالي زغرتا يمضون فصل الصيف في ربوعها، لم يكن المشهد مختلفاً. فالبلدة مقسمة إلى أحياء تماشياً مع الانقسامات العائلية، وتعيش أجواءً ساخنة أو باردة وفق المرحلة السياسية التي تمر فيها البلدة بالعلاقة مع الصراعات السياسية بين أطراف "المارونية السياسية" في "المركز". وفي هذا السياق، تحضرني "الفاجعة" التي ألمت بالحي الذي كنا نسكن فيه عندما ورد خبر مقتل سركيس بهاء الدويهي على يد أحد أفراد عائلة "آل كرم" وهو في سيارته ماراً في زغرتا ومتوجهاً إلى بيته في إهدن. مع ورود هذا الخبر خرج من المنازل أفراد عائلة سركيس المغدور ونساء أبناء الحي، وبدأوا بالبكاء والنحيب. الجميع يبكي وينتحب ويردد "يا ضيعانك يا سركيس، يا شيخ الشباب". وبينما كنت في وسط هذه المناحة، وجدت نفسي أجهش بالبكاء دون أن أدري أبعاد ما كان يجري. كان الخبر بالنسبة لي لا يعني سوى مقتل سركيس، والد يوسف، الولد الذي يسكن بالقرب من بيتنا ويصغرني ببضع سنوات (كان عمري آنذاك لا يتجاوز الثالثة عشرة سنة). إلا أن الجو العام دفعني للمشاركة في البكاء "الجماعي" الذي وجدت نفسي في وسطه بصورة فجائية.

58 مع مرور الأيام ونمو وعيي السياسي، تبين لي أن الصراع الدموي الذي دام طويلاً بين عائلتي كرم ودويهي، وما سبقه من اقتتال دموي بين عائلتي فرنجية ودويهي، كان امتداداً لصراع بين أجنحة المارونية السياسية (شمعون والكتلة الدستورية ومن ثم شمعون والشهابية) على تحسين شروط الفوز برئاسة الجمهورية. لم تكن الدولة غائبة أو ضعيفة في منطقة زغرتا، بل كانت الصراعات العائلية التي تخترقها في صلب تكوين السلطة والدولة في لبنان.

59 أنتقل الآن إلى مشاهد عايشتها أيضاً في المساحة العامة الوحيدة في إهدن، وهي منطقة "الميدان". فمع بلوغي الخامسة عشرة من العمر، بدأت أقصد الميدان أكثر فأكثر. وكان هو المكان الوحيد تقريباً حيث يلتقي فيه الناس من كل الأعمار والخلفيات العائلية والاجتماعية، إلى جانب صعود شعبية شارع المغتربين كمكان لـ"الكزدار" والتلاقي خصوصاً بين المراهقين.

60 عدا عن هذه الأمنكة "العامة"، كانت إهدن، كما سبق وذكرت، مقسمة إلى أحياء يغلب عليها طابع عائلي معين. ومن بين الأمور التي كانت تشدّني إلى الميدان، ولها طابع عام، أمران: حضور الأفلام السينمائية التي كان يليها نقاش بين الحضور حول الفيلم من حيث الشكل الفني والمضمون. وأعتقد أن هذا النشاط كانت تقوم بتنظيمه مجموعة من الشباب الجامعي (لا أذكر حضوراً نسائياً ملفتاً). كما دفعني هذا النشاط إلى التصميم على دراسة الإخراج السينمائي والتخلي عن هذه الفكرة بعد عدة سنوات. والأمر الثاني، ك
الميدان بين شباب جامعيين، وغالباً ما كانت تدور باللغة الفرنسية حول أمور
بمقدوري متابعة النقاشات، لا لغوياً ولا من حيث المضمون، لكنني كنت أنص
محاولاً جهدي أن أتابع المتحاورين، ولكن دون نجاح يذكر في غالب الأحيان.

والأمر الآخر الذي ما برح يستوطن ذاكرتي، كان اليوم الذي تمت فيه دعوة الـ
موسى الصدر، رئيس "حركة المحرومين"، للكلام عن "العمل الفدائي ومواجه
ونظمت الدعوة لإلقاء الخطابات من على شرفة "أوتيل بلاس" في إهدن. أذك
لدرجة أن الحضور كان منتشراً على الطريق العام المؤدي إلى نبع مار سركيس
أن خطاب الإمام كان أكثر جاذبية وإقناعاً للحضور.

قبيل هجرتي إلى سيدني، وخلال انخراطي "المحدود" في "الشأن العام" كما
المراهقين أمثالي ومن البالغين على السواء، تعيش المخاض السياسي والثقا
انفجار الحرب الأهلية عام ١٩٧٥.

الاصطياف في إهدن: العائلة والمجتمع المحلي والأساطير

63 بعدما أنجز والدي بناء منزل متواضع (مؤلف من غرفتين ومطبخ وحمام) بموازاة الجانب الخلفي لمنزل عمّه أبو سايد، بدأت عائلتنا تصطاف في إهدن منذ أواسط العقد السادس من القرن الماضي. بالنسبة لي، كان الاصطياف في إهدن الطريقة المثلى للهروب من الطقس الحار في محلة القبة والرطوبة العالية التي كانت تستوطن فضاءها. فبالرغم من نشأتي في أطراف مدينة طرابلس التي تقع على شاطئ البحر المتوسط، لم أفضل يوماً الذهاب إلى البحر بدلاً من الجبل، وأعتقد أن السبب في ذلك هو عدم تمكني من السباحة.

64 شيّد والدي المنزل في إهدن على قطعة أرض بمساحة ٤٥ متراً مربعاً، وكانت ملكية الأرض هذه تعود إلى جدي. وبعد وفاة جدي وجدتي، انتقلت ملكيتها إلى أولادهما السبعة بالتساوي. ولاعتبارات عديدة ومعروفة لدى غالبية العائلات اللبنانية، فشل الوَرَثة في حصر الإرث وتصفيته لصالح والدي الذي كان يرغب في ذلك، ولكن دون أي جدوى. وللآن لم يتم الاتفاق على حل يرضي جميع الورثة، ما أدى إلى عدم السكن في المنزل وإهماله لدرجة جعلته غير قابل للسكن. الملكية (وامتلاك السلطة) هي ليست فقط وراء قيام نظم الاستبداد والاستغلال في المجتمعات، بل أيضاً وراء النزاعات العائلية التي تفضي في أغلب الأحيان إلى عداوات و"حلول" لصالح البعض وعلى حساب البعض الآخر.

65 على أي حال، الاصطياف في إهدن كان ممتعاً ومثيراً للغاية، خصوصاً بالنسبة لي، ابن الثالثة عشرة، عندما بدأت بتمضية فصل الصيف في تلك البقعة الخلابة من قضاء زغرتا. كان قبالة مدخل بيتنا في إهدن "زاروباً" يستخدمه المارة والدواب لنقل الأشخاص إلى الحقول وما يحتاجونه من أشياء عديدة. وفي حالات نادرة، كان "الزاروب" نفسه يستخدمه قطّاع الحطب الذي يعمل على تقطيع جذوع صغيرة لإضرام النيران في أفران الخبز أو تحضيراً لدرء البرد القارس في المنازل أثناء فصل الشتاء. أما الشخص الذي كان يقوم دورياً بتلك المهمة تلبية لحاجة الجيران إلى الحطب، فكان يدعى محسن موسى. وكان لمحسن قامة طويلة فوق العادة، ويمتلك قوة جسدية بارزة. وكان الخبر الشائع عن مدى قوته الجسدية أنه تمكن ذات مرة من دق ثلاثة أجراس في كنيسة مار مطانيوس قزحيا دفعة واحدة، وبيد واحدة. والملفت أن محسن كان يتقبل أي تحدٍ من أبناء البلدة يتعلق بامتحان قدرته على قطع الأغصان الغليظة أو جذع شجرة مهما بلغ حجمه، بواسطة الفأس الذي يمتلكه لهذا الغرض. وكنت أنا وبقية أولاد الحي نحوم حوله مندهشين بقوته الجسدية الهائلة. ولاحقاً تبين لي أن اندفاع محسن لتقبل تحدي الآخرين، لم يكن فقط بسبب قوته البدنية التي يستخدمها لاكتساب "مكانة" اجتماعية يفتقد لها لولا قوته البارزة، وإنما أيضاً بسبب احتسائه للكحول في أغلب الأوقات قبيل قيامه بتقطيع الحطب المطلوب.

ومن الأمور التي اختبرتها للمرة الأولى في تلك المرحلة من العمر كانت محاو
يكن اختبار التدخين بواسطة السيجارة التي يتم شراؤها من "الدكنجي"، ولا حتـ
أعقاب السجائر التي تُرمى على قارعة الطريق. فق اعتمدت تجربتي الأولى ؤ
والمتوفر بغزارة في الطبيعة. قصدنا، أنا وشلة من الأصحاب بقعة كانت تعرف
بعيدة عن أنظار المارة والأهل بالطبع. لم يكن الوصول إلى تلك البقعة عسير
عامة الناس وعلى السيارات لارتفاعها بحدة أولاً، ولعدم وجود طريق ممهدة
فقد اعتمدنا على فتوتنا والممرات التي فتحتها أقدام الماعز. وعندما وصلنا إ
قبالة البلدة، جلس الجميع القرفصاء والتقط كل منا ما تيسر من أعواد القش
والمنتشرة بكثافة على الأرض. كانت تلك هي السيجارة التي ننوي تدخينها. و
"سيجارته"، وشفطنا الدخان المتولد منها، بدأنا بالسعال المتكرر والشديد، وكا
الغثيان. ومنذ تلك اللحظة، تولد لدي شعور كاره للتدخين بقي يصاحبني لغاي

كانت منطقة "حميْنا" مقصدنا عندما كنا نرغب في الابتعاد عن أنظار الأهل و
واسعة وآمنة. كانت حميْنا ملعباً لكرة القدم، يحولونه أحياناً إلى مكان لقيام م

إهدن" التي أطلقت في ستينيات القرن الماضي. أذكر في عمر الرابعة عشرة، أنني قصدت ذلك المكان ليلاً (صيف ٦٨) لأشاهد ما كان يجري فيه تحضيراً لتلك المهرجانات. بالطبع لم يكن مسموحاً لنا، كما عامة الناس، الاقتراب حفاظاً على سير عمل التمرينات على مسرحية كتبها الشاعر يونس الابن، كما علمت لاحقاً. وتبين لي أيضاً، وأنا أقف على مسافة بعيدة نسبياً من ذلك المكان في حميْنا، وجود امرأة على قدر من النشاط ما يشير إلى قيامها بدور رئيسي في التمارين التي كانت تجري. كان صوتها جهورياً وفيه "بحة" مميزة. وكانت تعطي التعليمات يميناً ويساراً حيث كان الممثلون موزعين على خشبة المسرح. أثار المشهد إعجابي كثيراً، لأنني كنت قد بدأت بالانجذاب إلى التمثيل والإخراج المسرحي منذ بداية السنة الدراسية المنصرمة. فخلال تلك السنة، حاولت بالتعاون مع صديقي عمر صليبا (أخبرني عمر بأن والده كان معجباً بعمر بن الخطاب ولذلك أسماه عمر) أن نمسْرح قصيدة الشاعر الأخطل الصغير "الهوى والشباب". كانت الفكرة تقوم على أساس أن يمثل عمر دور الشباب صامتاً ومحركاً جسده تماشياً مع مضمون القصيدة، بينما أقوم بإلقائها دون أن أظهر على المسرح.

68 على أي حال، بقيت أراقب ما كان يدور على المسرح في حمينا علّني أكتسب بعض المهارات التي كانت تتجلى على المسرح دون أن أتمكن من ذلك لبعد المسافة وعدم سماع كل ما كان يدور من كلام. وعلمت لاحقاً أن المرأة التي كانت محور الحركة على المسرح كانت نضال الأشقر.

69 ولمنطقة حميْنا دور آخر في الأوقات التي قضيتها في إهدن. فعلى تلة من الجهة الجنوبية الغربية لملعب حميْنا، وُجدت مغارة صغيرة وهي كناية عن حفرة أفقية في صخرة متوسطة الحجم. والشائع في إهدن أن تلك المغارة كانت ملاذاً "للبطل"، يوسف بك كرم، الذي قضى حياته وهو يحارب السلطنة العثمانية من "أجل لبنان". على الجهة اليمنى للمغارة وعلى مستوى أعلى منها بقليل، كان يوجد حفرة أو حفرتان في صخرة مفلطحة لا يتجاوز عمقها العشرة سنتمترات، تبدأ بالانحدار تدريجياً من بدايتها لتصل إلى ذلك العمق عند النهاية، على امتداد ما يقارب الثلاثين سنتمتراً. وكان الاعتقاد السائد في البلدة أن تلك الحفرة أو الحفرتين هما آثار لأقدام فرس البطل يوسف بك كرم حين كان يربض مختبئاً في المغارة بعيداً عن عيون الجنود العثمانيين. وكنا نقف أمام الحفرتين ونتلمسهما بأصابعنا متعجبين ومبهورين بالقدرة الخارقة لحصان يوسف بك على إحداثهما. فإذا كان هذا ما فعلته أقدام فرس يوسف بك، فما بالك بقدرته هو شخصياً، والعجائب التي كانت تروى عنه على مسامعنا بين الحين والآخر. ومن بين ما تناهى إلى مسامعنا آنذاك، هو قدرة البطل على تجميد جسد كل من يجرؤ على الدخول إلى المغارة التي كان يختبئ فيها، الأمر الذي كان يجعلنا نقف أمام مدخلها "مسمرين" لا نتجاسر حتى على مد يدنا إلى داخلها خوفاً من أن "تتيَبّس"، ولا يعود بمقدورنا أن نحركها ونسحبها من الفضاء الذي اقتحمته.

بالطبع لم تكن القدرة العجائبية حكراً على يوسف بك كرم وحصانه الأسطوري نصيب بأشكال ووظائف متنوعة. ففي نهاية الطريق المؤدية إلى نبع مار سر القديس ذاته. وفي محيط الدير، هناك شجر جوز تمتد أغصانه الوارفة إلى جا بين الحين والآخر لإتمام "كزدورة" بعد الظهر. وفي كل مرة كنا نمر فيها بجانب إطلاقاً على قطف ولا حتى حبة جوز واحدة رغم وفرتها على الأغصان القريبة عليها. والسبب في ذلك الاعتقاد الشائع في إهدن بقدرة مار سركيس العجائب "جوزاته" تلتحم بحبة الجوز المستهدفة بصورة دائمة لا فكاك منها. هكذا كان ممتلكات الدير الزراعية باستخدام "المقدس" للحفاظ عليها من تطاول المارة، يتبين أن الأساطير والعجائب المنسوبة إلى القديسين وبعض الأفراد أصحاب تندرج من حيث تأثيرها على الأفراد والجماعات في آليات رمزية (ذات أبعاد ح إنتاج منظومة التسلط والسيطرة في تلك المجتمعات. ونظرتنا آنذاك إلى كل خير دليل على ما نسوقه في ختام هذا الكلام.

بلوغ سن المراهقة مع خالي فيليب وصديقه سمعان

71 كان خالي فيليب يتردد كثيراً إلى منزلنا لأسباب عديدة، منها أنه الأصغر في عائلة الوالدة ولا يزال أعزباً، ومنها ما له علاقة بغياب الوالد للعمل في الكويت واضطرار الوالدة للاستعانة به على إدارة شؤون العائلة، كالعناية بأخي الذي يكبرني بثلاث سنوات، والذي بدأ باكراً ب"تعذيبها" لعدم مثابرته على الاهتمام بالدراسة، وإصراره باستمرار على الحصول على "خرجية" تفوق قدرتها على التحمل. كان أخي بيار قد قرر أن "يَجْهل" منذ تلك الأيام، ولم يغادر هذا القرار حتى اليوم.

72 لم يكن خالي يتقن العناية بتربية الأولاد حسبما أذكر، أو ربما لم يدخل في دائرة اهتمامي عندما كنت ما دون الثالثة عشرة، لانهماكي الحصري في تلك المرحلة باللعب مع الأولاد في الحارة المجاورة للبيت. كما أنني كنت ولداً مطيعاً لأمي لا أتلكأ في تلبية طلباتها (كشراء غرض ما من الدكنجي) باستثناء طلب التركيز على الدراسة والاهتمام أكثر بالواجبات المدرسية. ربما هذا الوضع لم يحفّز الوالدة لطلب التدخل من أخيها في تدبير شؤوني المدرسية. أضف إلى ذلك، كان فيليب يتيم الأب ويعمل دهاناً، والأهم بالنسبة إلى تقصيري في المدرسة أنه لم تتوفر له أصلاً الظروف المادية المؤاتية لتحصيل درجة من العلم تؤهله للعناية بتدريسي وتحسين أدائي في المدرسة.

73 ولكن مع بلوغي الثالثة عشرة من العمر، بدأ خالي يشدّ اهتمامي شيئاً فشيئاً. بداية، لفتني تعليقه الدوري على الخوف الذي كان أخي بيار يشعر به من الطلب إليه الذهاب ليلاً إلى الدكان ليبتاع له أو لأمي غرضاً ما. وكان خالي مع صديقه كارلوس أو أنطون يعتبران أن هذا الخوف "اللامبرَّر" يبعث على الضحك. وبعد فترة تحول هذا الخوف خلال "السهْرية" إلى مادة للسخرية من الجبن الذي يظهره بيار عند تهديده بالإرسال ليلاً إلى الدكان. كان أخي يخاف بخاصة من احتمال مصادفته لكلب شارد في الحي وهو في طريقه لتنفيذ المهمة. وفي إطار وضع حد لجلسة الضحك المجبول بالسخرية و"التمرْقع"، يستعين خالي بي للقيام بالمهمة المطلوبة ليثبت لأخي "أنه جبان وخوّيف". وكنت ألبي الطلب دون تردد مدفوعاً برغبة "ولّادية" للحصول على اعتراف "العائلة" أنني الابن الشجاع الذي لا يخاف الليل بوجود كلاب أو بدونهم.

74 مع بلوغي الخامسة عشرة من العمر، قيل لي إن خالي قرر الالتحاق بالكونسرفاتوار الوطني ليتعلم العزف على الكمان. وبدأت أشاهده يتدرّب على العزف في غرفته كلما كنا نزور جدتي لوالدتي التي كانت تسكن في برج حمود مع عائلة ابنها الأكبر سركيس. وأحياناً كنت أرافقه إلى حيث يتلقى دروساً في الموسيقى الغربية الكلاسيكية على يد آنسة في منطقة السوديكو تدعى جيزال. كانت جيزال نحيلة الجسم في متوسط العمر ذات شخصية نزقة. ومنذ ذلك الوقت، بدأ خالي بتدريبي على كيفية الاستماع للمو
وأذكر مقطوعة شهرزاد للمؤلف نيقولي ريمسكي كورساكوف والاستماع إليه
معنى "التوزيع الأوركسترالي" و"الهارموني" و"الآلات الوترية" وإلخ. كما كان
والأحداث التي كانت مصدر إلهام لتلك المقطوعة. بالنسبة إلى الأغاني، كنا
رحباني وزكي ناصيف ويغوص خالي في تحليل الأغاني شعراً ولحناً وتوزيعاً
الأجنبية، أذكر تركيزه على أغاني فرانك سينترا ودين مارتن وأدائهما المميز. كا
بالموسيقى والأغاني، وكان يريدني بشغف أن أكتسب حبه لهما. وقد نجح في

في تلك المرحلة، تعرّفت على صديق لخالي يدعى سمعان. كان سمعان يعم
القامة، "مربوع" كما كان يقال بالعامية. سرعان ما لفتني أن خالي يعزّ صديق
وكان الاثنان مولعين بحضور آخر الأفلام التي كانت تعرض في صالات السين
وسط البلد. وكانا يصطحبانني معهما إلى السينما عندما كانت الوالدة تأخذنا
المدرسية، وللاطمئنان على أمها وإخوتها القاطنين في برج حمود. وفي طري
وصديقه يتقصدان العودة إلى المنزل مشياً على الأقدام مروراً "بمنطقة الج

يناقشان الفيلم من جهة جودة التمثيل ومضمون القصة والإنتاج وما إلى ذلك. وقتها ورغم أنهما لم كونا يكترثان بإشراكي في النقاش، كنت أجدني مشدوداً إلى النقاش الدائر، ما عزز قناعتي بدراسة الإخراج المسرحي أو السينمائي. وفي يوم من أيام اللقاءات تلك، اكتفشت "القطبة المخفية" لتلك الصداقة القوية بين الاثنين. وقتها فاجأني خالي بحديثه عني متوجهاً بكلامه إلى سمعان، إذ قال له: "بول عم يقرا بهالإيام مجلة مواقف، فشو رأيك يا سمعان؟". كنت اشتريت المجلة المذكورة لاحتوائها مقالاً للأب هيكتور الدويهي، الخوري المناهض للزعامة العائلية في زغرتا بعنوان: "كنيسة بشر وليست كنيسة حجر". وبسرعة نظر إليّ سمعان ونصحني باستبدال قراءتي لتلك المجلة بمجلة "الطريق". وأضاف أن "مواقف" يترأس تحريرها الشاعر القومي السوري أدونيس، بينما مجلة "الطريق" هي الأفضل لأنها مجلة الشيوعيين. علمت لاحقاً أن العلاقة الوطيدة بين خالي وسمعان كان مردها أن الأخير كان كادراً منظماً في الحزب الشيوعي ويعتبر خالي نصيراً للحزب. ومنذ ذلك الوقت، صرت من قراء مجلة "الطريق" كلما تسنى لي شراؤها كما أنني لم أتخلَّ عن قراءة "مواقف".

76 ومع مرور الأيام، توطدت علاقتي مع خالي أكثر، لا سيما بعد رحيل الوالد إلى أستراليا. وفي يوم من الأيام، علم خالي قبيل هجرتي إلى سيدني عام ١٩٧١، أن الفتاة التي كنت مغرماً بها قد قررت فجأة أن تتخلى عن حبها لي، بعد مرور ما يقارب السنة على علاقتي بها. وكانت تلك الفتاة تسكن في جونيه بعد تمضية عطلة الصيف مع أهلها في إهدن. وعلى إثر نهاية "علاقتنا"، كنت في حالة من "الزعل" لم أتمكن من إخفائها على خالي عندما أتى من بيروت لزيارتنا في القبة. وعند سماعه لذلك الخبر، قرر أن يصطحبني معه إلى بيروت وأن يتقصد اللقاء مع حبي الأول جمال ونحن في طريقنا إلى برج حمود. هكذا تم اللقاء بين جمال وخالي الذي أصر ألّا أتواجد فيه في البداية، إلا إذا فاز بتعديل رأي جمال لاستئناف العلاقة معي من جديد. كان خالي شديد الانتباه لعدم زيادة "زَعَلي" في حال رفضتْ طلبه. تم اللقاء ولم يفلح خالي بمهمته. وكان غضبي من تلك النتيجة مع اقتراب موعد الهجرة إلى أستراليا من العوامل التي خففت تدريجياً من وطأة النهاية القسرية لتلك العلاقة.

77 في سنوات التفتُّح على "الحياة" التي تسبق مرحلة البلوغ، غالباً ما يترك أحدهم من المحيط العائلي أو المحيط القريب آثاراً لا تمحوها الأيام لأنها تصبح جزءًا من مكونات شخصية الفرد. كان خالي فيليب هو الإنسان الذي دخل في تكوين معالم أساسية من شخصيتي.

سهرة الوداع والسفر إلى سيدني مروراً بمدينة سايغون

78 قبل ما يقارب السنة من هجرة ما تبقى من العائلة إلى أستراليا، دخلت والدتي إلى المستشفى لإجراء عملية استئصال الغدة الدَّرقية. كان هذا الحدث الأول من نوعه بالنسبة لي وللعائلة. ذهاب أمي من طرابلس إلى بيروت لإجراء عملية جراحية ومكوثها في مستشفى أوتيل ديو لعدة أسابيع، و سركيس في الجبل لتتعافى بالكامل من آثار العملية. خلال تلك الفترة، غادرت إلى بيتنا الكائن في القبة للعناية بنا، أنا وإخوتي الأصغر مني، جون وغيلدا ور الماضي غياب أبي عن البيت بداعي العمل، إما في بيروت أو الكويت أو أستر الماضيتين. أما أم بيار، فلم أختبر غيابها عن البيت لأسابيع متتالية إلا في تلك أستراليا. ومع ذلك، كنت خلال وجود أمي في المستشفى، منهمكاً في التحض الشهادة التكميلية.

مستشفى أوتيل ديو مستشفى خاص والعملية الجراحية التي أجريت للوالدة والدي كان قد غادر للعمل في أستراليا، إلّا أنه لم يتسنَّ له بعد إرسال ما يكفي المستشفى وأجرة الطبيب الجراح. علمت لاحقاً أن خالي سركيس، الملتحق في شيف"، قد تولى دفع جزءٍ أساسي من المبلغ المطلوب. كان وما زال التعاضد الفجوات في نظام الأمن الصحي في لبنان. أدى هذا الحدث إلى تأخير التحاق

سيدني ما يقارب السنة، وإلى اضطرار الوالدة للاستدانة من عمي إلياس "الناولون"، أي كلفة تذاكر السفر، للذهاب لاحقاً إلى أستراليا.

80 قضينا ليلة يوم السبت الواقع في ٢١ آب ١٩٧١، في منزل خالي في برج حمود. وكان الهدف من تلك الزيارة توديع جدتي العجوز وجميع أفراد عائلة أمي الذين كانوا يسكنون مع عائلاتهم في المنطقة نفسها، وذلك قبيل سفرنا إلى أستراليا في اليوم التالي للالتحاق بأبي وأخي الأكبر في سيدني. وفي تلك الليلة، دار كلام كثير حول سفرنا إلى أستراليا وما يمكن أن ينتج عنه بعد عدة سنوات. البعض تنبأ بأننا سنغيب لعدة سنوات (خمس سنوات على ما أذكر)، نعود من بعدها إلى لبنان ومعنا من المال ما يكفي لتأمين عيش كريم. والبعض الآخر كان يمزح قائلاً: "كلشي وما تروحوا وتنسونا، وفوق هيدا تنسوا العربي ويصير لسانكن تقيل وانتوا عم تحكوا معنا بالعربي". أخوالي الثلاثة شددوا على توصيتي بأن أقوم بمساعدة الوالدة على متن الطائرة خلال الرحلة والعناية بإخوتي الثلاثة الصغار. وما لا يمكن محوه من الذاكرة في تلك السهرة الوداعية كانت نوبات البكاء لجدتي على فراقها المؤكد لأمي. ليندا هي الابنة البكر التي كانت دائماً السند الأول لأم رامز، لا سيما في السنوات الأولى بعد وفاة جدي المبكر بحادثة مؤلمة.

81 ماتت أم رامز بعد عدة سنوات ولم تتمكن الوالدة من العودة إلى لبنان لا لمشاهدتها ولا للمشاركة في جنازتها. كان ذلك الحدث الأليم الأول في سلسلة مشابهة من الأحداث العائلية التي توالت تباعاً ونحن لا نزال في "بلاد الغربة". ومع وفاة زوجة عمي أولاً وعمي ثانياً ثم وفاة والدتي ووالدي في سيدني، كنا قد دخلنا أيضاً بسلسلة من أحداث موازية لتلك التي بدأت مع غياب أم رامز في لبنان.

82 في موازاة ذلك، مضت السنوات الخمس الأولى ولم نعد إلى لبنان، ومضت السنون تلو السنون ولم نفلح بتحقيق حلم العودة مع جمع ما "يكفي" من المال لتأمين العيش الكريم في "الوطن الأم". والأنكى من ذلك، دخل لبنان في "حرب أهلية" لم يخرج منها رسمياً إلا بعد خمسة عشرة عاماً (١٩٧٥-١٩٩٠). تمكن الوالد من القيام بزيارة واحدة إلى لبنان، عاد من بعدها إلى سيدني راسخاً في قناعته أن العودة النهائية إلى لبنان مستحيلة مع تأكيده المستمر بأن "حبه للبنان سيبقى في قلبه إلى الأبد". أما الوالدة، فقد قامت بثلاث زيارات إلى لبنان، وإن كانت تعاني في زيارتها الأخيرة من اكتئاب حاد مصحوب ببدايات مرض الزهايمر. الهجرة تشظّي الجماعة (العائلة والأصحاب...) التي ينتمي إليها الفرد، الأحياء والأموات على السواء.

83 قبل وصولنا إلى مطار سيدني في صباح يوم الاثنين الواقع في ٢٣ آب من عام ١٩٧١، حطت الطائرة في مطار سايغون في طريقها إلى أستراليا. والملفت في تلك المحطة، كان وجود الجنود الأمريكيين بأعداد كبيرة تكاد أن تفيض عن قدرة المطار على استيعابهم. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها
بـ"لكنة" أمريكية. بدأت أفهم آنذاك ما معنى التدخل الأمريكي في فيتنام، الأ
عبر الإذاعة وعلى ألسنة الناس.

عند وصولنا إلى مطار سيدني كان الطقس ماطراً وبارداً في آن معاً، ونحن ال
الأكثر حرارة في فصل الصيف. وكانت المفاجأة الأولى لي عندما علمت أن ال
الأسترالية في جنوب الكرة الأرضية، ما يجعل التوقيت في سيدني ليس فقط
وإنما يؤدي أيضاً إلى تعاكس فصول السنة فيصبح صيف لبنان شتاءً، وشتاؤ